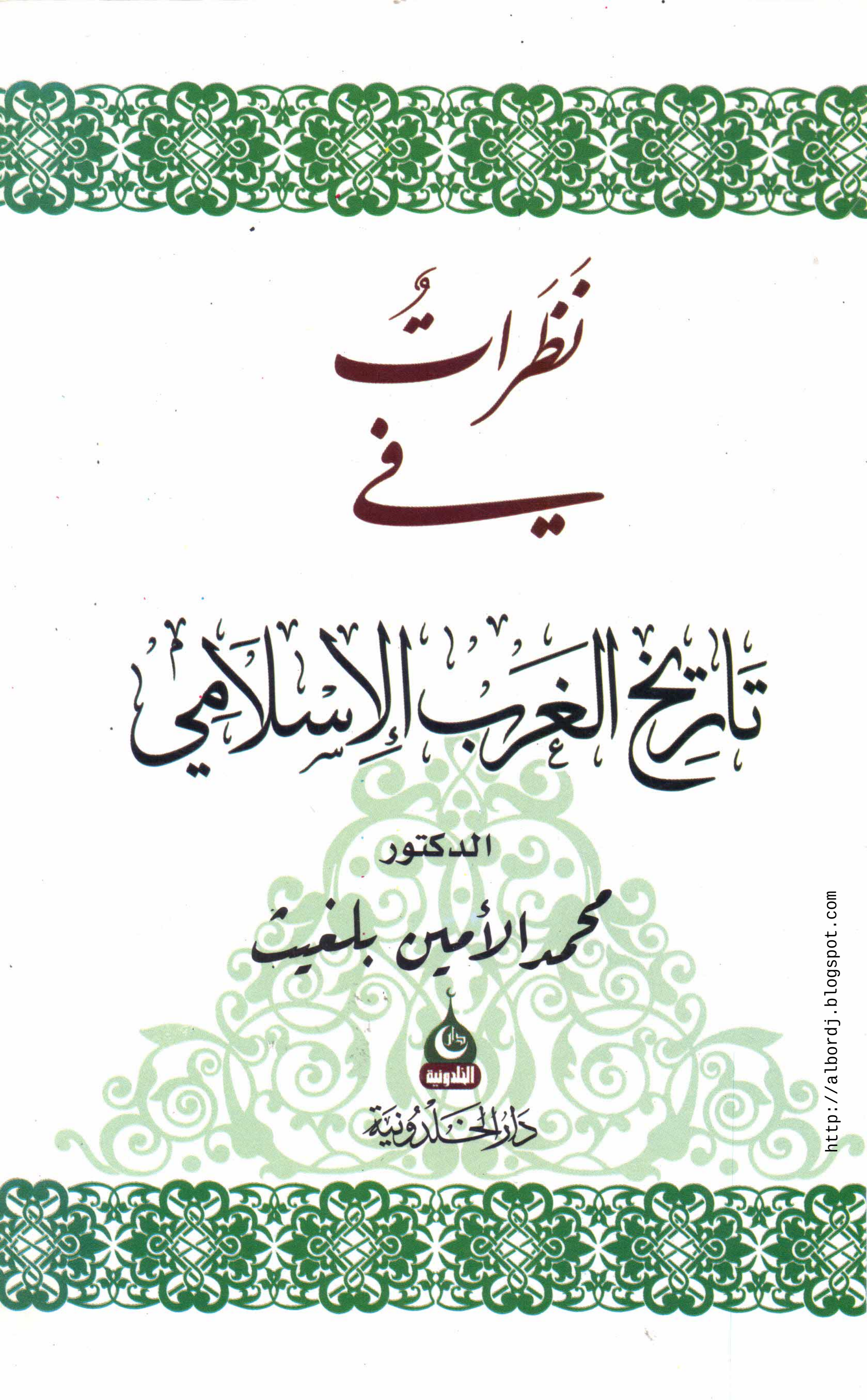
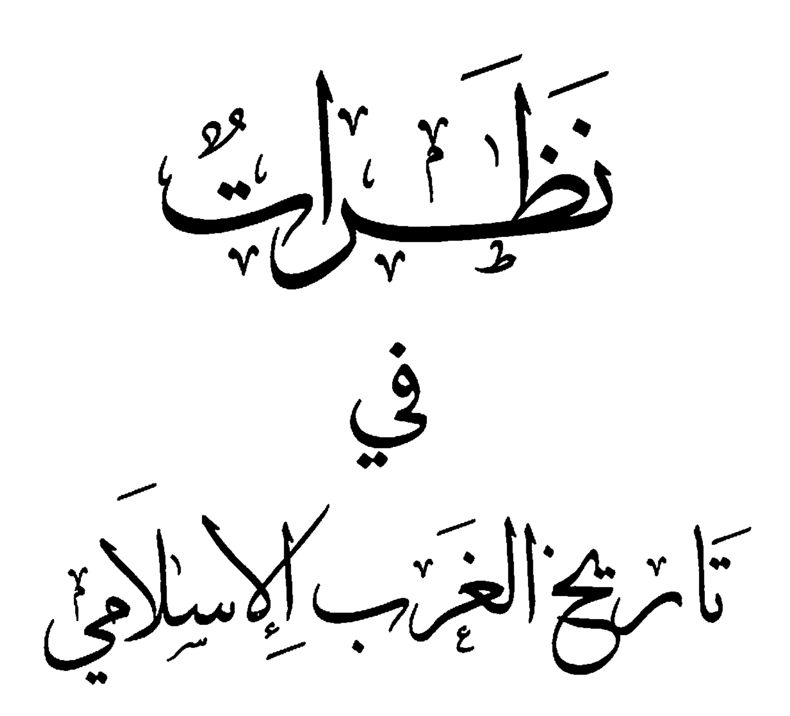


# نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي

الدكتور
محمد الأمين بلغيث

دار الخلدونية

الدكتور محمد الأمين بلغيث
جامعة الجزائر





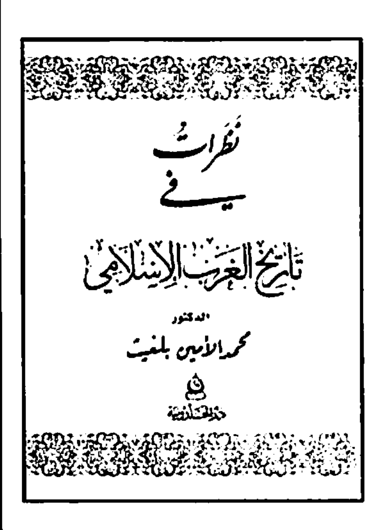




الكتاب: نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي
إعداد : د.محمد الأمين بلغيث
قياس الصفحة : 24/16
عدد الصفحات : 176 ص
الإيداع القانوني : 2234- 2007
ردمك : 6- 194- 52- 9961- 978



دار الخلدونية للنشر والتوزيع
05، شارع محمد مسعودي
القبة القديمة . الجزائر.
هـ : 021.68.86.49
هـ/ف :021.68.86.48
البريد الإلكتروني :
khaldou99_ ed@yahoo.fr




الطبعة الأولى
1428هـ - 2007م





# الإهداء

إلى ذكرى صديقي المغفور له بإذن الله "جمال عزيري" رحمة الله عليه، الصديق العزيز، والمحسن الفاضل والغني الشكور الذي توفي في أقصى بلاد الصين وذهب إلى ربه يشكو ظلم الناس وظلم الذين جاروا عليه.

لقد غادرنا "جمال عزيري" ذات سنة، وحُمل نعشه من أقصى بلاد الصين ليوارى في صمت ببلده الجزائر فترك فراغاً كبيرًا بين إخوانه وأحبابه، فإلى روحه الطاهرة أهدي هذه الدراسات ذكرى محبة خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى.

الدكتور محمد الأمين بلغيث

الجزائر المحروسة، ضاحية المحمدية

في 11 جمادى الأولى 1428هـ/28 ماي 2007م.

# المقدمة

إن تحرير الكتابة التاريخية من التاريخ المدوي السياسي والعسكري هي لب دعوتنا في هذه الحلقات التي نقوم على نشرها ضمن الأعمال الخاصة بتاريخ الغرب الإسلامي.

ويمثل هذا الكتاب الحلقة الثالثة في سلسلة تروم إلى الكشف عن مخزون تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي والعمراني.

وقد نشرنا الحلقة الأولى من مشروعنا الخاص بتاريخ الغرب الإسلامي تحت عنوان: "دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي"، بدار التنوير العامرة.

والحلقة الثانية بعنوان: "فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي"، بدار أنتير سينيي.

وأما الحلقة الثالثة الموسومة بـ "**نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي**"، هي مجموعة أبحاث وأوراق بحثية، بدأناها باستكمال أعمالنا الخاصة بأهل الذمة عامة ويهود الأندلس خاصة، انطلاقًا من نصوص جديدة وأبحاث جادة جامعية، كنا قد نوهنا بها في ملتقيات وأوراق تعيد قراءة مشاركة يهود الغرب الإسلامي كوسطاء في التجارة الدولية، ونقلهم للمعرفة الإسلامية إلى أوروبا، وهذه الأوراق والأبحاث هي:

1 - **مشاركة يهود الأندلس الاقتصادية في عصر المرابطين ودورهم في نقل المعرفة الإسلامية إلى الغرب(الترجمة).**

2 - **العلاقات الحمادية المرابطية من خلال ديوان الإنشاء.**

3 - الفلاحة بالأندلس في عصر المرابطين:

4 - الرباط والمرابطة ونظام الرهبانية والديرية المسيحية(دراسة تاريخية مقارنة).

5 - أبو العلاء زهر بن أبي مروان بن زهر الإشبيلي (ت.525هـ/ 1131م) طبيب دولة المرابطين بالغرب الإسلامي.

ولا يفوتني الاعتذار إلى القارئ الكريم عما يظهر من عيوب حينما جمعت هذه الدراسات في سفر واحد، وقد كُتبت في الأصل متفرقة، وهذا يظهر أحيانًا في التكرار بين بحث وآخر مذكرًا بدولة المرابطين خاصة، ومن اختلاف في النسق التأليفي بين دراسة وأخرى.

وعذري أنني أقدم زبدة أعمال متفرقة، حيث فرضت علي منهجية الطرح أن أذكر بأمر تاريخي أو مسألة لها علاقة بتقديم العمل إلى مستمع أو قارئ لا يملك أبجديات تاريخ دول الغرب الإسلامي وعلى الخصوص دولتي المرابطين والموحدين، وعذري في هذا أن هذه الأعمال والأبحاث متفرقة لكنها تشكل وحدة موضوعية تسعى إلى تقديم بعض النماذج من الحياة الاجتماعية والاقتصادية ضمن الإطار العام لتاريخ الغرب الإسلامي.

والله المستعان

د. محمد الأمين بلغيث

الجزائر، ضاحية المحمدية

في 11 جمادى الأولى 1428هـ/ 28 ماي 2007م.



# مشاركة يهود الأندلس الاقتصادية في عصر المرابطين ودورهم في نقل المعرفة الإسلامية إلى الغرب (الترجمة)[*].

(*) مداخلة بالملتقى المغاربي حول الأقليات الدينية في المغرب من الفتح إلى نهاية العهد العثماني، 5-6 مـــاي 2003م. كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.

## أولا: دولة المرابطين الدعوة والتكوين

تكونت دولة المرابطين في الطرف الغربي الجنوبي من إفريقيا الغربية، بداية من سنة 429هـ/ 1037م وهي بداية التاريخ الكرونولوجي المؤسس لجيل المرابطين إلى غاية تأسيس عاصمة جديدة مراكش سنة 462هـ/ 1070م حيث بدأت مرحلة ثانية من التوسع نحو الشمال للقضاء على دويلات الطوائف ووصلت في نهاية 484هـ/ 1091م إلى توحيد المنطقة الواقعة ما بين بجاية شرقا إلى ساحل المحيط غربًا ومن شمال جبال البرانس شمالا إلى جنوب غرب تمبوكتو وكومبي صالح جنوبًا وقد بلغت أقصى اتساعها في الجنوب الشرقي إلى شمال غرب تشاد قريبا من الحدود الليبيبة الحالية كما جاء في آخر الدراسات.

وتكونت الدولة المرابطية في منطقة صحراوية هامة في العلاقات بين الصحراء الغربية والشمال الغربي للبحر الأبيض المتوسط وهي المرحلة الحسَّاسة التي اشتد فيها الصرَّاعُ على المواد الأولية المعدنية كالذهب والفضة وغيرها من النفائس وكذلك التنافس على الملح الطبيعي والمعدني وجميع أنواع النفائس المعروفة في إفريقيا الغربية.

والدعوة المرابطية دعوة قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قام بها الداعية عبد الله بن ياسين مهدي المرابطين كما يلقبه القدماء حيث قامت هذه الدعوة في مرحلة التكوين بتكوين جماعة مؤمنة برسالة الفقيه المالكي سالف الذكر، ويمكن تقسيم مرحلة التكوين إلى مرحلتين:

1. **فترة التكوين المذهبي والعسكري في مؤسسة الرباط** التي كونها الداعية المصلح ويمكن أن نحدد مرحلة التكوين المذهبي والعسكري في مدة زمنية ما

بين سبعة إلى اثني عشر سنة، وهي مدة كانت كافية لتكوين ما يزيد عن ثلاثة آلاف مرابط تكوينًا مذهبيًا وعسكريا.

2. مرحلة تطبيق تعاليم عبد الله بن ياسين: بدأت هذه الفترة بخروج الملثمين من عزلتهم في أقصى الجنوب الغربي من موريطانيا الحالية وأصبحوا على حد تعبير أحد المؤرخين "آلة حرب".

وقد بدأت "آلة الحرب" عملها من خلال توحيد قبائل غمارة ونكور لنصل إلى طنجة وتوحيد المغرب الأقصى بعد القضاء على الشيعة البجلية وعلى دولة برغواطة في تامسنا وإنهاء ممالك طوائف المغرب الأقصى، وبعد ذلك اتجهت القوات المرابطية شرقًا فتمكنت من السيطرة على تلمسان (473هـ/ 1079م) وهران؛ وجزائر الثعالبة بل وصلت إلى حدود بجاية. وفي هذه اللحظة توغل في المغرب الأوسط حتى بلغ وهران كما سلف وجبال ونشريس وعقب ذلك استسلمت القبائل الأخرى صفوًا دون أن يخوض في ذلك غزوة أو يتجشم فيه مشقة فخلا الجو للمرابطين للتفكير في فتح الأندلس التي تمت لهم بعد معركة الزلاقة الشهيرة في رجب 479هـ/ ماي 1086م.

## ثانيا: دولة المرابطين ومرحلة السقوط

لا توجد دولة في فضاء التاريخ الإسلامي قد لقيت من الإجحاف والنسيان كدولتي الأمويين والمرابطين لسبب بسيط، هو أن الدولتين من ضحايا دول مذهبية قوية فالدولة العباسية التي أسقطت دولة الأمويين استطاعت طمس تاريخ بني أمية وكتبت تاريخهم كما يحلو للمؤرخ الرسمي العباسي، كما أن دولة المرابطين كانت ضحية لدعوة أعلنت الحرب النفسية على المرابطين فكفرتهم وحملتهم أوزار كل مآسي الغرب الإسلامي مع العلم

وللحقيقة التاريخية أن أجيال المرابطين من عصبية لمتونة ومسوفة وجدالة قد ضحوا بكل طاقاتهم البشرية من أجل حماية الأندلس وحدها التي كانت على وشك السقوط مبكرًا في يد دعاة الاسترداد المسيحي للمنطقة وقد قدر لهذه الدولة حماية الغرب الإسلامي طيلة خمسة قرون كاملة إلا أن المدرسة الإستشراقية التي صنعت تاريخ المنطقة قد وجدت المادة الأدبية الموحدية جاهزة لتشوه تاريخ المنطقة تشويهًا يصعب إصلاح ما أفسدته أيدي هؤلاء أمام الدعاية الموحدية القوية.

انتهت الدولة المرابطية بسقوط مراكش سنة 541هـ/1147م في يوم مراكش الحزين، ولا يتحدث المؤرخون عن وكلائهم (بني غانية) على جزر البليار إلا في إطار الصراع داخل الدولة الموحدية.

وإذا ما تتبعنا أحوال اليهود في الأندلس في عهد المرابطين فإن الدراسات اليهودية تقول: إنهم عاشوا في رخاء نتيجة الازدهار الاقتصادي الشامل للبلاد، ولذلك بلغوا درجة كبيرة من الثراء مما أدى إلى مساهمتهم في إغناء الحياة الأدبية والفكرية والاقتصادية [1]. وتجب ملاحظة أن بروز اليهود في الحضارة الغربية الحديثة، وتفاعلهم معها، لم يتم إلا بعد أتمت عَلْمَنتهم وتخلوا عن أية هوية دينية يهودية، على عكس النجاح الذي حققوه في إطار الحضارة العربية الإسلامية، إذ حققوه باعتبارهم يهودًا ذوي هوية دينية مستقلة، ولكن تجدر الإشارة إلي أن يهود العالم الإسلامي لم تظهر منهم شخصيات فكرية ذات ثقل كبير على عكس يهود الأندلس الذين برز فيهم يهوذا اللاوي في عهد المرابطين وموسى بن ميمون (530هـ/ 601هـ/ 1135-

(1) مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م.ص:307.(الملحق رقم :8.). إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، 1998م.ص:108

1204م) في عهد الموحدين، كما أصبح ابن شلوخة اليهودي خازن المال بسجلماسة في عهد الخلافة الموحدية، كما أن صمويل الفاسي حبر مراكش الذي اعتنق المسيحية أيام المرابطين، وسمي صومويل ماروشيتانيوس (*Semmel Marochitanus*) قد شغل منصبا ذا شأن في بيعة سجلماسة [1] وغيرهم من مفكرين وشعراء ووجهاء، ولم يؤسس يهود الأندلس مدارسهم المستقلة إلا بعد تعربهم، وبعد أن أخذت نخبتهم تتشرب الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي كانت التقاليد الفكرية داخل حلقاتهم العلمية تسمح لهم بالانفتاح الكامل على هذه الحضارة، حيث أمكنهم الإبداع من داخلها، فأنتجوا أهم أدبياتهم الفكرية والأدبية التي تحتل مكان الصدارة حتى العصر الحديث، كما أشار المنصفون من الدارسين اليهود في فهمهم لهذه الإشكالية المهمة مثل حاييم الزعفراني وسلمون جويتاين[2] وتدهور وضعهم بتدهور العالم الإسلامي[3] ولا يمكن فهم التراث الديني اليهودي في هذه المرحلة إلا بالعودة إلى التراث الإسلامي الفلسفي والديني، ويمكن القول أن تفاعل الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية أمر لا نظير له في أية حضارة أخرى، لأنها أعطت لهم وسيلة الحياة ومنهج النقد وفهم التطورات الإنسانية، خلال العصور الوسطى، فخرجوا من دوائرهم الضيقة إلى عالم

---

[1] عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية "معلمة الصحراء" الرباط، 1976م. ص:121.نقلا عن الحبيب الجنحاني، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة عاصمة بني مدرار،ص:159

[2] *David Gonzalo Maeso, Los Arabes Maestros de los Judios en la espana medieval (Ensayos sobre la filosofia en al-Andalus Una Aproximacion Ensayos Sobre la Filosofia en Al-Andalus,* Autores Textos Y Temas Filosofia,Coleccion Dirigida Por Jaume Mascaro n° 29, Anthropos Edotoral del hombre , Printed in Spain 1990.) p:166-177.

[3] عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية (نموذج تفسيري جديد)، المجلد الرابع، بيروت،دار الشروق، 1999م.ص:247. أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، الرياض، مكتبة العبيكان، 2003م.ص:155.

أرحب، حيث الحرية والاحترام لحامل العلم[1]، فقد ساهموا في الإدارة إلى جانب الحياة الفكرية بحرية تامة إلا ما ذكر ابن عذاري وهو يتحدث عن أبي حفص عمر يناله الذي تولى غرناطة مدة أربعة أشهر فقط وعزل عنها (جمادى الأولى 522هـ/ 1128م)وهو أحد أبناء علي بن يوسف، الذي كان في إقليم الشرق، وقد أساء السيرة مع معاهدة غرناطة، منتقمًا منهم، مما فعلوه بالمسلمين، لما تحالفوا مع رذمير، وقد تجاوز سلطاته يقول ابن عذاري فلما وصل إلى حضرة أمير المسلمين علي بن يوسف أشار بذكره إليه معاهدة غرناطة، فأمر بمحضره معهم في مجلس نظره، فأدلوا بحجج في ظلمه فسجنه لهم حتى أنصفهم من ظلامتهم ثم بعد ذلك أصابه طاعون كان سبب حتفه، وكان هذا يناله (عمر) إذا عاقب الجاني اعتدى عليه، وإذا أُتي بالبريء لم يسمع منه، وكان له كاتب يهودي الأعراق، والأخلاق يبغض الناس ويبغضونه أشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به، فبدأ بشؤمه أميره يناله، فجرّ إليه العزل وأورده السجن وأداه إلى الهلكة، وغدا شؤمه عليه فاستؤصل ماله، ونهبت داره وطلب ليوقع به ففر وهلك بعد ذلك، وكان أشقر أزرق ذميم الخلق في وجهه خال[2].

ومن جملة رجال أبي حفص عمر يناله ابن أمير المسلمين علي بن يوسف، رجل زيه التلثيم، نشأ بمدينة طنجة وتأدب بإشبيلية، يعرف بموسى

---

[1] المسيري، المرجع السابق، ص :247.كواتي مسعود، المرجع السابق، ص: 295.

D.G.Maeso, *Los Arabes, Maestros de los Judios en la espana medieval* , p:166 . Alvarez,yBenito, y Plaza, *Guia del toledo judio, Alvarez (Ana Maria lopez)* Ricardo Izquierdo Benito, Santiago Palomero, Guia del Toledo Judio, Fotografías Antonio Parejay Carlos Villasante, 1990. p. 27.

[2] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة،1980م.ص:77.د.عصمت عبد اللطيف دندش، زيارة الأندلسيين لبلاط المرابطين بمراكش، (أضواء جديدة على المرابطين)، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1991م.ص :111.

بن مفروج، له خط بارع وأدب صالح ونفوذ في الحساب، ألقى إليه الأمير أبو حفص جميع الأعمال وأوطأه عقب الرجال، فاستبد بالأمر واستقل، فدس إليه يهودي ينتحل الطب سقاه يوم أربعاء، ودفن يوم الجمعة عام 522هـ/ 1128م[1].فقد كان اليهود كعادتهم متقوقعين على أنفسهم في أحياء خاصة،كقرطبة فيقولون عن مدخله باب اليهود أو حي اليهود وقد سمي:باب الهدى بعد أن استقبحوا باب اليهود وراعوا تجانس لفظي اليهود والهدى، وكذلك الشأن في حي اليهود بطليطلة وسرقسطة[2] وكانوا يحتكرون التجارة،وفي بعض الأحيان السلطة وإذا وجدوا من ينافسهم في ذلك عملوا على التخلص منه بطريقة خسيسة، وهذا ما رأيناه عندما قوى نفوذ موسى بن مفروج الملثم في غرناطة فعمد أحد أطباء اليهود إلى دس السم له فأرداه صريعًا، وكان نفوذ اليهود بغرناطة كبيرًا حتى كانوا يقولون عنها مدينة اليهود[3] وموضوع اليهود في عهد المرابطين فيه نقاشات كبيرة بين الباحثين، ففي دراسة "قريتز" يقول:إنَّ يهود الأندلس عاشوا بين قوتين متصارعتين، دولة المرابطين المتعصبة ودولة الفونسو ومملكة قشتالة وأراغون، إلا أن هذا لا يمنع الباحث نفسه إلى التصريح بأن كبار اليهود، الشعراء والأطباء والذين

---

(1) ابن عذاري، المصدر نفسه، ص: 76.

(2) ليفي بروفنسال، ملاحظات عن أسماء المواقع الإسبانية المغربية (أسماء البوابات:باب الشريعة، والشريعة في مدن المغرب الإسلامي في العصور الوسطى (الإسلام في المغرب والأندلس)، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، مراجعة الدكتور لطفي عبد البديع ، الفجالة ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر (دون تاريخ).ص:65.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص: 76-77.سلامة محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، (دراسة سياسية وحضارية) بيروت دار الندوة الجديدة، 1405هـ/1985م.ص :82. رينهارت دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، القاهرة، 1933م. ص :41. أحمد شحلان، تأثير الآداب العربية في الآداب العبرية، (دراسات مغربية مهداة إلى المفكر المغربي محمد عزيز الحبَّابي)، ص:224.

اشتغلوا بالفلسفة والتنجيم والرياضيات، عاشوا حياة مريحة بل وفيهم من تلقب بلقب وزير في عصر المرابطين ومنهم: الشاعر أبو يعقوب سليمان بن المعلم الذي حمل صفة الأمير والوزير، والثاني أبو الحسن أبراهام بن مير بن كامنيال، الذي كانت حمايته لأهل دينه من الظروف الطارئة تمتد لكل اليهود من مصر إلى بلاد العراق، وأبو إسحاق بن مهاجر، ومنهم الوزير سليمان بن فاروسال الذي اغتيل في 2 ماي 1108م في مهمة دبلوماسية إلى الممالك الأسبانية بعد معركة أقليش(*Ucles*)الشهيرة التي أحرز فيها المرابطون نصرًا مؤزرًا على جيوش قشتالة[1].وبالرغم من هذا يقول فيليب حتي وكارل بروكلمان بأن أهل الذمة قد عاشوا في كنف المرابطين في جور وظلم واضطهاد[2].

لقد ترعرعت الثقافة اليهودية في دار الإسلام، وتطعمت بجوهر الثقافة الإسلامية فكرًا وتأليفًا باحتكاكها بفطاحل العلماء وكبريات الحواضر الإسلامية في غرناطة وقرطبة وإشبيلية وسرقسطة، وكانت عاصمتهم ومحجهم ليشانة بضواحي قرطبة[3].ومن مظاهر الحرية التي تمتع بها يهود

---

(1) انظر : H. Graetz, *Les Juifs d'Espagne (945-1205)*,Traduit de l'allemand par : Georges Stenne, Paris, Levy Frères éditeurs,1872. p . 191-192.
سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، بيروت، دار النهضة العربية، 1405هـ/1985م.،ص :177.

(2) فيليب حتي، تاريخ العرب، ترجمة مبروك نافع، الطبعة الثالثة، ص:704.
كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية،نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، مارس 1993م.ط.12.ص:322-323.محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه الدولة مخطوطة، إشراف عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2002-2003م. المجلد الثاني، ص:567.

(3) كواتي، المرجع السابق، ص :224 . إبراهيم محمود زعرور، علي سليمان أحمد ، اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، دمشق ، دار المستقبل، 1999م، ص :169..

الأندلس في عهد المرابطين، هو انتشار المراكز الدينية في الحواضر الأندلسية المرابطية[1]، خاصة في عهد علي بن يوسف الذي التزم بأحكام الشريعة مع أهل الذمة حتى نعته أحدهم بأنه: أحد حماة اليهود.

لما طلب أهل فاس وأعيانها توسعة مسجد القرويين أقرت السلطة وجهاء المدينة على طلبهم فتوج علي بن يوسف أعماله العمرانية في الغرب الإسلامي بتوسعة مسجد القرويين، والتي أنفق فيها 80 ألف دينار مرابطية، وذلك بإضافة 1850م[2]للمسجد، ثم شرع في شراء البيوت المجاورة للمسجد والتي تدخل ضمن التوسعة، وكان معظمها لليهود، فاشتراها منهم بأثمانها دون بخس[2] ولا شك أن روح التسامح التي ميزت المرابطين من الناحية الدينية تخالف المعاملة القاسية التي عرفها المسلمون على أيدي العناصر اليهودية المتسلطة في ركاب النصارى على إثر سقوط بلنسية في يد "السيد"، حيث ارتكبوا أبشع الصور مع سكان بلنسية مساعدين بذلك المعتدي، كل هذه القرائن تقوم حجة وتنفي ادعاء من فسَّر هجرة المفكرين اليهود نحو الممالك النصراية بأنها نتيجة التعصب الديني الذي أبداه المرابطون[3]، فلو كانت كما زعمت هذه الدعايات لما فتحت أمامهم مجالات الكتابة بحرية تامة والأبحاث في ديانتهم من الدلائل القاطعة على ما تمتع به اليهود من حرية العقيدة والفكر في ظل الحكم المرابطي هو ظهور العديد من المفكرين والعلماء الذين طوروا الثقافة والفكر اليهودي، ومارسوا أنشطتهم دون معارضة من السلطة القائمة، ولهذا ظهر في عصر المرابطين ألمع الأسماء اليهودية وهو ما بينته تراجم أشهر علماء اليهود في هذا العصر ويأتي على

---

(1) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، القرن 8-11م/ 2-5هـ، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م، ص:119.

(2) المرفي، المرجع السابق، ص:376-377.

(3) بروكلمان، المرجع السابق، ص :322.

رأسهم؛ إسحاق الفاسي(ت.497هـ/ 1103م) [1] الذي هاجر من قلعة بني حماد واستقر بالأندلس سنة 481هـ/ 1088م،كما أن عددًا كبيرًا من اليهود آثروا الاستيطان في مدن أندلسية و مغربية[2].والسموأل وأبو الحسن يهودا هاليفي أو اللاوي (478-544هـ/ 1085-1148) (*Judah Halevi*) صاحب كتاب :"الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل" الذي يسعى إلى نقد الفلسفة اليونانية ونقد الأديان الأخرى. وقد اختار له ثلاثة من العلماء أي أصحاب الملل الثلاث، الأول مسيحي، والثاني مسلم، والثالث يهودي وعرض كل واحد عقيدته على ملك الهند وهو أشبه بمنهج ابن كمونة في تفضيل دينه على بقية الملل الأخرى، وانتهىبالجدل بين الملل الثلاث باعتناق الملك لملة اليهودي[3].وبغض النظر عن مغزى القصة، فإن العصر؛ عصر الجدل الديني بين أصحاب الديانات السماوية في كل الرقعة الإسلامية.ومن أشهر علماء اليهود في عصر المرابطين موسى بن يعقوب بن عزرة المولود بغرناطة بين سنوات 1055 و1060م [4] لعائلة يهودية غنية عريقة، كان ابن عزرة عارفًا بالتوراة والآداب اليهودية على اختلافها دينية وأدبية وشعرية،

---

(1) ولد إسحاق الفاسي عام 1013 بقلعة بني حماد بالمغرب الأوسط،وكان يدير مركزًا يهوديًا كبيرًا بفاس البالي إلى غاية استقراره بالأندلس في عصر المرابطين لمنافسة كبار أحبار اليهود الأندلسيين في غرناطة وقرطبة وأليسانة. وأما شويج الفاسي فقد وضع قاموسًا عبريا ومباحث قيمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية وفي هذا العصر كتب داود بن إبراهيم الفاسي معجمًا يسمى" جامع الألفاظ" وضعه لتفسير وشرح مفردات التوراة.يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين الجزء الثاني، ترجمة محمد عبد الله عنان، مصر، مؤسسة الخانجي، 1958م.ط.2.ص :256.عطا علي محمد شحاته ريّه. اليهود في بلاد المغرب الأقصى، في عهد المرينيين والوطاسيين، دمشق، دار الكلمة، دار الشفيق، للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م .ص:194.

Graetz, *op. cit., p.184. Zafarani, op. cit.,p. 24*

(2) Sloush(N), *Etude sur l'histoire des juifs du Maroc*, Archives Marocaines, Vol. 4. 1905, p. 117.

(3) كراني، المرجع السابق، ص : 204.

(4) *Haim Zafaran,Traditons poétiques et musicales juives en Occident musulman, Paris; éditions Unesco,éditions Stavit.1998 , p.85*

عارفًا باللغة والأدب العربيين نصوصًا وتاريخًا، شديد الاهتمام بالفلسفة اليهودية والإسلامية، مطلعا على المصادر اليونانية المتداولة بين الأندلسيين،ومن أساتذته إسحق بن غياث رئيس مدرسة أليسانة.قضى موسى بن يعقوب بن عزرة حياته بغرناطة، فنهل من معارفها واختلط بذوي المعرفة والآداب والشعر، إلى أن دخل المرابطون المدينة عام 1090م، فغادرتها أسر يهودية كثيرة ومن بينهم أسرته وإخوته كلهم وبقي هو بها، إلا أن حاله تغير فاعتزل الناس وابتعد حتى عن أقربهم إليه وهم أبناؤه، وبقي على حاله إلى أن غادر غرناطة إلى الأندلس المسيحية عام 1095م، ليلقي عصا الرحلة والترحال هناك؛ فظل بها طوال أربعين سنة يعيش الوحدة والضياع والفقر، ويردد ذكرى أيامه الزاهرة بغرناطة، ويتأسف على المنهل العذب الذي تركه هناك، إذ يشعر أنه بين أقوام جهال متبجحين مرائين[1]. وازداد حزن موسىبن يعقوب بن عزرة مع تقدمه في السن وبعد ما مات أحد أبنائه، كما تنكر له أخوه يوسف الذي كان يعتمد عليه في عيشه، ولم يقم أولاده بواجبهم إلابعض الأغنياء من أبناء غرناطة الذين قاسموه منفاه، والغريب أنه رضي بهذه الحال مع أنه كان بإمكانه العودة إلى مدينته غرناطة التي أحبها، والتي تقول الدراسات اليهودية إنَّ يوسف بن تاشفين قد عوضهم ما فقدوه في الكائنة والثورة التي أدت إلى مجزرة بغرناطة الزيرية في 09 من صفر سنة 459هـ/ 30 ديسمبر1066م بعد قصيدة العابد أبي إسحاق الألبيري السياسية[2]، كما ذهب إلى ذلك عبد الله الزيري في

---

[1] أحمد شحلان، من الأدب العربي-العبري (أبو هرون موسى بن يعقوب بن عزرة وكتابه المحاضرة والمذاكرة) (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، العدد العاشر، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984م.ص :67.إبراهيم محمود زعرور، علي سليمان أحمد، المرجع السابق، ص:132.

[2] عبد الله الزيري، مذكرات الأمير عبد الله، المسماة بالتبيان،تحقيق ونشر أ.ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، القاهرة،1955م.ص:54.

عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت،القاهرة، دار الشروق، 1983م.ص:112.

مذكراته، وقد يكون عدم عودة ابن عزرة لغزًا في حياته إلى أن توفي في العقد الرابع بعد الألف والمائة للميلاد، كما دلت على ذلك آخر أشعاره التي حملت سنوات 1135 أو1138م [1] وظل ابن عزرة يحافظ على تراثه وثقافته العربية طوال منفاه بأسبانيا المسيحية، حيث يقول عن نفسه : "ما رماني به الدهر في آخر العمر من الاغتراب الطويل والاكتئاب المتصل في أفق بعيد وثغر سحيق، فأنا مسجون في حبس بل مدفون في رمس"[2].ويبدو أن ابن عزرة لم يعد إلى غرناطة ونحن نشاطر الباحث القدير أحمد شحلان الذي اعتمد أشعاره ورسائله حجة لتسطير حياة هذا الأديب المفكر الذي عاش في هذا العصر مجال الرسالة أما الباحث فرنانديز فيرى أنّه قد عاد إلى غرناطة ورفض العروض التي قدمها له يهود إستيلة (*Estella*) للقدوم إليها واستيطانها تحت رعاية الفونسو المحارب[3].ترك ابن عزرة ثروة شعرية ودراسات هامة بالعربية ولكن بالحروف العبرية كما هي عادة الأدب العربي العبري، وله من الآثار ديوان شعر، على طريقة بحور الخليل بن أحمد الفراهيدي، وبه ما يقارب مائتي وستين قصيدة، تتوزع على أغراض شتى الغزل، الخمريات، الشكوى، العشق، ويتكون هذا الديوان كما يقول الباحث أحمد شحلان من ستة آلاف بيت شعر، وله مجموعة شعرية ثانية تتكون من خمس عشرة قصيدة في مواضيع متعددة، ومجموعة أشعار غنائية ثالثة ، وأما في الأبحاث والدراسات ، فقد ترك دراسة بعنوان:"مقالة الحديقة في معنى المجاز والحقيقة" وضع فيها معارفه الفلسفية لخدمة التوراة، ويعتبر الكتاب أو مقالة الحديقة سيرة ذاتية لابن عزرة، كما يعرض فيها أسلوبه في أشعاره التي نظمها، وله كتاب:" المحاضرة والمذاكرة" وهو كتاب فريد من نوعه، حيث لم يترك موضوعًا من موضوعات اللغة والنحو والفلسفة والأخلاق إلا واهتم

---

[1] أحمد شحلان، المرجع السابق،ص :67.

[2] إبراهيم زعرور، المرجع السابق،ص:132.

[3] Fernandez, *Les juifs espagnoles au moyen âge*, Paris, Gallimard,1983. p:80.

به؛ وصفه أحد ناسخيه فقال : "وهو مقالة تتضمن المحاضرة والمذاكرة، " وفيها نكت من أمور الشعر والشعراء، ونبذ من صنعة الخطب والخطباء، ونقط من نوادر العلم والعلماء، وشواهد من كلام الزهاد والفضلاء، ونوادر من أنباء الفلاسفة والحكماء، ولمع من تواريخ الأعيان والشهراء (كذا) وفقر من براعة الكتاب والبلغاء، وجمل من آثار النحويين والفقهاء"[1] وكتاب حسن المحاضرة عبارة عن أجوبة أجاب بها ابن عزرة سائله، وهي طريقة نهجها المؤلفون اليهود مثل ابن ميمون، في كتابه دلالة الحائرين، ويهودا اللاوي في كتابه: الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل، كما نهجها مؤلفون مسلمون أيضًا، ومن أهم نصوص كتاب المحاضرة والمذاكرة المطلب الثالث وهو كيف صار الشعر في ملة العرب طبعًا وفي سائر الملل تطبعًا لأن الشعر عند العرب فطرة وعند غيرهم صناعة، والمتصفح لدواوين الشعراء اليهود بالأندلس مثل سلمون بن كبرول، وأمير شعرائهم يهودا اللاوي، وابن عزرة وغيرهم، لن يجد غير أوزان الخليل المعروفة وأوزان الموشحات الأندلسية[2].

إن كتاب " المجاز والمذاكرة" لابن عزرة رسالة في فن الكتابة وتاريخ الشعراء اليهود من أهل الأندلس وآثارهم، وقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، ولم تبق منه إلا ترجمته العبرية.وكتاب الحديقة في معنى المجاز والحقيقة لم يبق منه إلا فقرات من ترجمته العبرية باسم أرحاب هابوشم" وهو كتاب يغلب عليه الطابع الفلسفي، ويحوي طائفة من الأمثال والحكم.

تحدثنا في أطروحتنا للدكتوراه [3] عن النقلة النصارى لتراث المسلمين إلى الغرب في عصر المرابطين وسمحنا لأنفسنا أن نتخطى المرحلة التاريخية ولو بعقدين من الزمن خاصة مع كبير النقلة جيرار الكريموني الذي بدأ

---

[1] الفقرة من وضع الناسخ هاليفي، انظر : أحمد شحلان، المرجع السابق، ص: 69.

[2] أحمد شحلان، المرجع نفسه، ص 76 .

[3] محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ج 2، ص:562.

العمل أيام المرابطين في طليطلة.حيث كانت طليطلة مدينة كبيرة للمستعربين المسيحيين قد عرفت نشاطًا ثقافيا يهوديا واسعًا، وقد كان بالمدينة التي تختلط فيها العناصر المسيحية واليهودية وأقلية مسلمة (مدجنة) رضيت مؤقتًا بحكم النصارى السادة الجدد لعاصمة القوط القديمة.كانت قرطبة مركز الترجمة من العربية إلى العبرية ومن العبرية إلى اللاتينية.وعند سيطرة المسيحيين على طليطلة عام 478هـ/ 1085م، مرت الأعمال التي ترجمت إلى الغرب المسيحي.وكذلك مرت أعمال أرسطو وغيرها من نماذج التفكير اليوناني التي ترجمت إلى اللغة السريانية ثم إلى العربية والعبرية واللاتينية، بمراحل وطرق واضحة المعالم: الأديرة السريانية التي تقع في شمال سورية وفيما بين النهرين، ومكاتب المأمون للترجمة في بغداد، ثم إلى مصر وأفريقيا الشمالية والأندلس:قرطبة، وطليطلة والمراكز اليهودية في اللانجدوك (*Languedoc*)، لتصل في القرن الثالث عشر إلى جامعة السوربون[1].

فكيف كانت وضعيتهم في الجهاز السياسي المرابطي، ومدى نقلهم للمعارف الإسلامية للغرب؟

### 1- اليهود نقلة المعرفة الإسلامية إلى الغرب المسيحي (الترجمة)

وبعد أن استعراضنا للأسماء اللامعة-من اليهود- ومنجزاتها، تجدر الإشارة أن النقلة اليهود عاصروا مرحلة النقل والترجمة وفيهم من شارك في مؤسسة الترجمة بطليطلة ومنهم من انتقل إلى انجلترا أو فرنسا، لكن الشيء الملاحظ هو أن جميع الرسائل الطبية التي ألفها مؤلفون يهود في القرن الثاني عشر (عصر المرابطين) كتبت بالعربية، وهو برهان على سمو العربية واعتبارها لغة العلم حتى من قبل غير الناطقين بالضاد، وقد نقلت بعد فترة وجيزة جدًّا إلى العبرية، وفي أحوال كثيرة نقلت من العبرية إلى اللاتينية فقد

---

[1] موريس لومبار، المرجع السابق، ص:119-120.

ترجمت أعمال ابن ميمون، وهو مؤلف يهودي أندلسي تعلم ونشأ في عصر المرابطين ثم انتقل إلى مصر وعاصر صلاح الدين الأيوبي وأولاده من بعده، حيث ألف الغالبية الساحقة من مؤلفاته باللغة العربية واشتهر كفيلسوف وكطبيب، وترجمت كتبه إلى العبرية على يد عدد من المترجمين من أمثال زراحيا غراسيان وموسى بن طيبون، وترجمت إلى اللاتينية، بعد هنيهة[1] على يد كل من يوحنا بن كابوا وأرمينغو بن بليس، ولقد تعاصر ابن ميمون مع جيرار ومدرسته مع العديد من المترجمين اليهود يستحقون الذكر ساهموا في نقل المعرفة الإسلامية إلى أوروبا عن طريق ترجمتها إلى اللغة العبرية، ومن هؤلاء النقلة يوسف قمحي(*Joseph Qimhi*)، وهو يهودي أسباني، نحوي ورجل دين وناقل من العربية إلى العبرية، ولد في جنوبي الأندلس ونبغ في ناربونة وولد سنة 499هـ/ 1105م وتوفي سنة 559هـ/ 1170م، تابع نشاط إبراهيم بارحيا البرشلوني (457-531هـ/ 1065-1136) في نقل الفكر العربي اليهودي إلى سكان أوروبا النصرانية، وترجم من العربية إلى العبرية كتاب الهداية إلى فرائض القلوب تأليف يحيى بن يوسف في عصر المرابطين(النصف الأول من القرن الثاني عشر ميلادي)، كما ترجم شعرًا منظومًا باللغة العبرية كتاب مختار الجواهر لابن جبيرول، ومن النقلة اليهود في عصر المرابطين يهوذا بن طيبون (*Judah Ebn Tibbon*) وهو من أسرة يهودية أندلسية نبغ فيها عدد كبير من النقلة من العربية إلى العبرية، ونقلت هذه الأسرة المؤسسة عددًا كبيرًا من الكتب العربية إلى العبرية، وأول هذه الأسرة يهوذا بن طيبون المسمى أبا النقلة اليهود، ولد في غرناطة سنة

---

[1] هاجر ابن ميمون من فاس متجهًا إلى مصر عام 556هـ/1160-1161م، في زمن الموحدين.وألف قبل هجرته رسالتين هامتين هما: رسالة الاتحاد"وهي رسالة يدعو فيها موسى بن ميمون إلى وحدة اليهود، والثانية"في سبيل تقديس اسم الله" وكانت هذه الرسالة بمثابة رد على أحد كبار أحبار اليهود.وهذا معناه أن موسى بن ميمون قد عاش مرحلة طلب العلم في أواخر المرابطين وأوائل عصر الموحدين.مهران، بنو إسرائيل (الجزء الثالث) الحضارة، التوراة والتلمود) ص:368.عطا علي شحاته ريه، المرجع السابق، ص:196.

514هـ/ 1120م ونبغ هناك حتى حوالي 545هـ/ 1150م، وقد نقل عددًا من الكتب العربية بين سنتي 556هـ/ 1161 و585هـ/ 1190م، كما أدخل إلى العبرية عددًا من المصطلحات العلمية الحديثة ذات الأصل العربي، وقام بترجمة:

1. كتاب الأمانات والاعتقادات تأليف سعديا بن يوسف، وقد نقله من العبرية إلى العربية، وطبع بالقسطنطينية عام 1562م.
2. كتاب إصلاح الأخلاق لابن جبيرول الذي ألفه في النصف الأول من القرن الحادي عشر ميلادي)، وطبع بالقسطنطينية عام 1550م.
3. كتاب مشكاة الجواهر لنفس المؤلف.
4. كتاب ابن جناح المسمى كتاب اللمع، وهو كتاب في القواعد حوالي عام 567هـ/ 1171م.
5. كتاب الأصول لابن جناح المذكور أعلاه، وهو قاموس عبراني نقله وترجمه عام 567هـ/ 1171م.
6. كتاب الهداية إلى فرائض القلوب ليحيى بن يونس وقد حجبت هذه الترجمة ترجمة نفس الكتاب التي قام بها يوسف قمحي في عهد المرابطين.

وقد تركت هذه الأسرة أسماءً لامعة في عالم النقل والترجمة في العصر الذي يلي أي خلال القرن الثالث عشر ومنهم على سبيل المثال صمويل بن يهوذا بن طيبون الذي عاش طويلا في الأندلس ثم انتقل إلى مرسيليا حتى مات فيها سنة 628هـ/ 1230م وقد نقل كتبا كثيرة أهمها دلالة الحائرين لابن ميمون وذلك حوالي سنة 602هـ/ 1204م[1].

---

[1] أحمد ماهر حمادة، رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب، (فكرًا ومادة)، القسم الأول، دراسة منهجية لانتقال الفكر العربي الإسلامي والكتاب العربي إلى ديار الغرب وأثره في النهضة الأوروبية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1412هـ/1992م.ص: 96.

كانت الترجمة في ذلك العصر تجارة مربحة تدر على أصحابها الأموال الطائلة، وكان موسى بن طيبون المولود بمرسيليا عام 638هـ/ 1240م قد ورث حرفة أسرته المشهورة بأعمال الترجمة الواسعة للآثار العربية وقد اختص موسى بالآثار الفلسفية[1].ومن أشهر المترجمين أيضًا بمدرسة طليطلة إبراهيم بن عزرة وفرح بن سالم وإبراهيم بن يحيى المتوفى عام 531هـ/ 1136م. فالترجمة وسيلة مهمة عرفت أوروبا بالعلوم العربية واليونانية،لأن العربية كانت همزة الوصل بين الإغريقية واللاتينية وهو دور لم يأخذ حقه. فكانت الترجمة ونقل المعرفة من أهم ما وصلت إليه هو إنشاء جامعات ورابطات تشبهًا بالمسلمين فكانت هذه الحلقات العلمية نواة الجامعات الأوروبية العريقة المعروفة إلى اليوم.

كان اليهود ينتحلون كتب المسلمين في الطب وفي علوم شتى لهذا نصح ابن عبدون الإشبيلي المعاصرللحقبة موضوع الدرس بعدم بيعها لليهود. قال ابن عبدون: يجب ألا يباع من اليهود، ولا من النصارى، كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، فإنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين، وكان الحسن أن لا يترك طبيبًا يهوديا، أو نصرانيا،وأن يجلس ليطبب المسلمين، فإنهم لا يرون نصيحة مسلم إلا أن يطببوا أهل ملتهم، ومن لا يرى نصيحة مسلم، كيف يليق بالمهج؟[2].
كما لا يمكن أن نهمل دور منطقة معروفة أشرنا إليها أعلاه إشارة خفيفة وهي منطقة سرقسطة ودورها في تسرب العلوم وقيام حركة ترجمة كبيرة، فإنه

---

(1) حسن عبد الرحمن علقم، الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطليوسي، عمان، الأردن، دار البشير 1408هـ/ 1988م.ص: 194.

(2) ابن عبدون الإشبيلي، رسالة في الحسبة، (ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب تحقيق ونشر ليفي بروفنسال القاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م. ص: 57.محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي إلى الغرب، دمشق،بيروت، دار النفائس،1419هـ/1999م. ص:140.

غير بعيد عن طرشونة كانت هناك تُطيلَة مدينة الأعمى التطيلي الشهير وتقع على نهر الإيبرو،وهي أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين كما عبر ابن غالب [1] وفي هذه المدينة كانت تقطن جالية يهودية مهمة في عهد المرابطين، وهي موطن الدارسين اليهوديين إبراهيم بن عزرة بن مير التطيلي(1089-1164م) أو (1092-1167م)؟ ويهوذا هاليفي أو اللاوي (1085-1148م)ويقال: إنَّ المترجِمَيْن هرمان الكارنثي(*Hermann of Carinthia*) وروبرت القيطوني (*Robert of Keton*) قد اشتغلا في منطقة الإيبرو منذ عام 535هـ/ 1141م، فمن المعقول إلى درجة كبيرة أنهما كانا في تطيلة،بل لقد أصبح روبرت في ما بعد رئيس الكنيسة في تلك المدينة، وكان هرمان يعرف عدة مصادر مثل ما عرف هوغو ولربما أُتيح لهما الوصول إلى مكتبة بني هود أيضًا الغنية بكتب الطب والتنجيم والمنطق والفلسفة والهندسة والفلاحة ورسائل إخوان الصفاء[2].

شهد القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي عصر المرابطين، حركة ترجمة واسعة، واكتسبت هذه الحركة قوة غير عادية، إذ أصبح عدد الكتب المترجمة في صقلية وإسبانيا يثير الإعجاب، وتدفق علم اليونان والرومان علىالأديرة من خلال العقول العربية، وأدمجت الكشوف التي

---

[1] ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة،نشر وتعليق لطفي عبد البديع، القاهرة (مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني،ربيع الأول 1375هـ/نوفمبر 1955م.ص:287. مارتن برنال، أثينة السوداء (الجذور الأفرو أسيوية للحضارة الكلاسيكية) الجزء الأول، (تلفيق بلاد الإغريق) (1785-1985) تحرير ومراجعة أحمد عثمان، ترجمة لطفي عبد الوهاب، فاروق القاضي، منيرة كروان، عبد الوهاب علون، حسن الشيخ، سلسلة المشروع القومي للترجمة، رقم:16.القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،1997م.ص:71.

[2] تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة من العربية في القرون الوسطى في إسبانيا، (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الثاني،تحرير سلمى الخضراء الجيوشي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م. ط.2. ص:1454.

توصل إليها المسلمون ضمن رصيد الثقافة الغربية، وقد أطلقت أسماء العديد من المدن الإسبانية على مجموعة المخطوطات الرياضية والفلكية التي ترجع إلى ذلك العصر، ومن بين تلك المدن التي كان أساقفتها تواقين إلى المعرفة:طرسونة، بنبلونة، وبرشلونة وسرقسطة، وطرطوشة وتتفوق طليطلة في هذا الميدان على جميع هذه المدن، حيث توافد عليها عدد كبير من العلماء الأوروبيين المتلهفين للحصول على المعارف العلمية الشرقية[1]تمتع اليهود بمكانة كبرى في عهد المرابطين مدار الدراسة، ومما يُحكى أن أيوب بن سليمان من بيت الخلافة المروانية بالأندلس أيام دولة المرابطين، وكان شاعرًا مجيدًا وأديبًا أريبًا، يدخل على الأمراء والرؤساء وكبراء البلد، فيمدحهم فيجزلون له العطاء، إلا أنهم يطلبون منه مغادرة بلادهم، نظرًا لنسبه المرواني، فكان يقول: الحمد لله الذي أسعدنا به أولا وأشقانا به آخرًا ومما يحكى أنه اتفق أن أكرمه يهودي نزل عنده ،وقد تخيل أنه رسول من بعض أمراء المرابطين، أو ممن يلوذ بهم فلما أعلمه غلامه، أنه من بقايا بني أمية، هاج وأخذ رمحه وحلف أن لا يبقى له في منزل ، فقال: إذا سُئلت عني فقل إنه من اليهود، فإنه أمشى لحالنا » فهل هذا يدل على مكانة وسطوة اليهود في عصر المرابطين[2].

## 2- مشاركة اليهود الاقتصادية (بين تسامح الدولة واحتكارهم المالي والتجاري)

إن التسامح مع الغرباء، ومع أهل الذمة والجاليات المسيحية في عصري المرابطين والموحدين تقوم حجة على من ينكر هذا السلوك الحضاري للدول

---

(1) جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث، تراث الإسلام، الجزء الثاني، ترجمة د.حسين مؤنس، د.إحسان صدقي العمد، مراجعة فؤاد زكريا، (سلسلة عالم المعرفة) الكويت العدد:234،صفر 1419هـ/يونيو،حزيران، 1998م.ط.2.ص:220

(2) محمد الفاسي، دراسات مغربية ( من وحي البيِّنة) سلسلة عيون، المغرب الأقصى، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 1990م.ص :142.

المغربية رغم اعتبار هؤلاء الغرباء والميليشيات المسيحية نقيصة من نقائص دولتي المرابطين والموحدين، كما انتشرت ظاهرة الزواج والتسري بالمسيحيات منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين، مع كثرة الرقيق الأبيض ببلاد المغرب ولما كانت بجاية بلدة غزاة، وكان غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها، « وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش » في بجاية كما يقول الغبريني[1].

وكان من أثر هذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين أن كثرت أسواق الرقيق في كبريات الحواضر وانتشار ظاهرة التسري بالجواري الصقلبيات وامتلأت قصور الأمراء كبار الموظفين بالمسيحيات، فاعتنق الإسلام البعض منهن، وكان لهن مقام مرموق عند بعض الملوك[2]. ويمكن أن نذهب أبعد مما ذكرنا فنقول:إنَّ المحافظة على العقيدة وحماية البيضة بالأندلس بأقصى الغرب الإسلامي لم يمنع المرابطين من تحقيق الأمن للجاليات المسيحية ولأهل الذمة عامة.ومن الواضح أن المحافظة على العقيدة والجهاد باعتبارهما حقوقًا لله تعالى تدخل ضمن اختصاص ولاة الأمور، مثل جمع الزكاة والأنفال، وإذا كان من واجب أمراء المسلمين بالمغرب والأندلس أيام دولة المرابطين تعطيهم حق حماية العقيدة والدولة بالغرب الإسلامي، فليس معناه أن يكون لهم رقابة وسيطرة على ضمائر الناس، بل الأمراء كما تذهب إلى ذلك الشريعة الإسلامية يلتزمون فقط بتنزيل أحكام الشريعة والمبادئ الأساسية التي أقرها الإجماع بواسطة مجتهدي الأمة، فليس من حق أمير المسلمين أن يتخذ محاكم

---

(1) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1971م.ص :76.

(2) الصديق بن العربي، طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، (مجلة تطوان)، المغرب،1956.ص:155.جان وجيروم طارو، أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلافريج ومحمد الفاسي، الرباط، المطبعة الوطنية، 1349هـ. ص:18.

تفتيش ضد من يعتبرهم من الملحدين، فلا وجود لمحاكم تفتيش على ضمائر الناس بما فيهم أهل الذمة من مواطني الدولة الإسلامية، دون إخلال بالنظام العام، كما يجب أن نفرق بين الحرب الهجومية التي تعلن ضد غير المسلمين الذين يرفضون الاعتراف للمسلمين بحرية الدعوة إلى الإسلام بعد دعوتهم لذلك، والحرب الدفاعية التي تهدف إلى صد كيدهم وعدوانهم[1].

كان دأب اليهود التسلط في عصر الطوائف كما شهد بذلك عبد الله الزيري في مذكراته، وقد نالت القصيدة المنسوبة إلى المولى العابد أبي إسحاق الألبيري التي خاطب فيها باديس ومحرضا على الوزير اليهودي ابن النغريلة(993-1056م) دورها، وتعبر هذه القصيدة عن تسلط اليهود في مملكة غرناطة الزيرية. ثم كيف أن هذه القصيدة بلغت رسالتها فقامت على إثرها ثورة غرناطة في عام 459هـ/1066م. والتي أدت إلى العديد من الضحايا اليهود لتجاوزهم عقد الأمان، وانتهبت أموالهم من طرف عامة المدينة، وهي على حد تعبير أحد الباحثين أقل بكثير مما انتهبه اليهودي ابن النغريلة من مسلمي غرناطة ومستضعفيها بتواطئ من حكام الإمارة [2].

وإسماعيل بن يوسف بن النغريلة اليهودي من أولئك اليهود الذين طعنوا في دولة الإسلام واستهزأ بالمسلمين، وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يُغنى بها، فآل أمره إلى أن قتله صنهاجة أصحاب الدولة ومن شعره الذي نظم فيه القرآن قوله [3]:

---

[1] عبد الرزاق أحمد السنهوري، فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، تحقيق توفيق الشاوي، نادية عبد الرزاق السنهوري، دمشق، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م.ط.1. ص :166.

[2] ابن الخطيب، كتاب تاريخ أسبانيا الإسلامية أو كتاب إعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنصال، بيروت،دار المكشوف، 1956م.ط.2.ص :231-233.

[3] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، القسم الثاني، ص:114. إميليو غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي، ص:113.

نقـــــشت في الخـــــد ســـــطرًا ... مــــــن كتـــــاب الله مـــــوزونْ
لـــــن تنـــــالوا الـــــبر حتـــــى ... تنفقـــــوا ممـــــا تحبـــــونْ

وحسب الأمير الغرناطي عبد الله الزيري صاحب التبيان، فإن يهود غرناطة قتلوا جميعهم عن بكرة أبيهم، فهل يمكن الحديث عن مجزرة ضد اليهود؟ فلو كان الأمر كذلك لما تركت الدراسات اليهودية هذه القضية تمر دون تضخيمها أو توظيفها على المستوى السياسي لتشويه التاريخ الحضاري للأندلس الإسلامية.وهي على ما يبدو المذبحة الوحيدة التي سجلها تاريخ الإسلام بالأندلس والمشرق[1].

وقد سجل الشعر أيضًا سيطرة اليهود على الأسواق في المدن الأندلسية ومما ذكره الشاعر أبو حفص العروضي الزكرمي ما قاله بالأندلس، وقد طولب بمكس كان يتولاه يهودي بدانية :

يـــا أهـــل دانيـــةٍ لقـــد خـــالفتم ... حُكْـــمَ الـــشريعة والمـــروَّةَ فينـــا
مـــاني أراكـــمْ تـــأمرون بـــضدٌ مـــا ... أمرت،ثُـــرى نـــسخ الالـــهُ الـــدينا
كنـــا نطالـــب لليهـــود بجزيـــةٍ ... وأرى اليهـــودَ بجزيـــة طلبـــون[2]

---

= Evariste Levi-Provençal, "Les Mémoires de Abdallah, dernier Roi Zirid de Grenade »,in *aL-Andalus,* 3, (1935),p. 273-300-301.

(1) ريموند شايندلين، اليهود في إسبانيا المسلمة، ترجمة مريم عبد الباقي، (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الأول،تحرير سلمى الخضراء الجيوشي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،1999م. ط.2. ص :306.انظر اختلافات كبيرة بين القصيدة عند ابن الخطيب والديوان الموجود بين أيدي الناس.إميليو غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي، ص:125-127.القصيدة رقم:25 من الديوان، ص ص:151-153.ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ص:231-233.

David J. Wasserstein, "Samuel ibn Naghrila ha-Nagid and Islamic historiography in Al-Andalus". dans *Al-Qantara*, XIV-1, (1993), p.109-125.

(2) أبو طاهر السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، أعدها وحققها إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1405هـ/1985م.ص :37.

وأخطر حدث عرفته الأندلس في عهد ملوك الطوائف هو محاولة إنشاء كيان سياسي يهودي بالمرية وبهذا الصدد يقول الباحث مسعود كواتي وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الدويلات (الطوائف) تتصارع، لم تستطع توحيد جهودها للحد من الخطر المسيحي، بالإضافة إلى ضعفها ، ففي هذا الظرف ظهر المشروع اليهودي وكان صاحبه يوسف بن النغريلة الوزير في الدولة الزيرية بغرناطة، الذي كان يُمَنِّي نفسه بأن يصبح الحاكم الفعلي لهذه الدولة وتحدث ابن عذاري عن طموحات ابن النغريلة الذي طلب أن يقيم لليهود دولة[1] ومما ضاعف نقمة الناس على الضرائب وجباتها (من اليهود والنصارى)وهو كلام غير موثق صدر عن بعض الباحثين بدعوى أن المرابطين أوكلوا إلى اليهود جباية الضرائب في عدة مناطق بالأندلس؛ كما أسند علي بن يوسف إلى جنده الرومي جباية البلاد الغربية، وبخاصة جبل درن وأحيانًا كانت توكل إلى الجيش عامة، فابتذلوا الأعراض في جبل درن حسب ابن الأثير[2].وقد فصَّل النويري ابتذال الأعراض فقال:"وقيل إنه لما خاف أهل تينمل نظر (المهدي) إلى أولادهم فرآهم شقرًا زرقًا، والذي يغلب على الأباء السمرة، فقال لهم مالي أراكم سمر الألوان وأولادكم شقرًا زرقًا، فأخبروه خبرهم مع مماليك أمير المسلمين، فقالوا لأن لأمير المسلمين عدة من المماليك الفرنج والروم، وأنهم يصعدون إلى هذا الجبل في كل عام مرة، يأخذون ما لهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان فيسكنون البيوت ويخرجون أصحابها منها "[3] ومن عجز عن أداء الوظيفة صودرت أمواله[4].

---

[1] كواتي، المرجع السابق ، ص :268 وما بعدها.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء العاشر، ص:537.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، ص:198. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرين.ص:282.

[4] عز الدين عمرو موسى، المرجع السابق، ص :172.

وكانت إقامة القوى المسيحية بالعاصمة مراكش تحت نظر أمير المسلمين، وكانوا عادة إذا خرجوا في مهامهم يكونون تحت نظر صاحب بيت المال، لذلك أكد أكثر من واحد إذ عهد إلى اليهود بأعمال الجباية في بلاد الأندلس في عهد المرابطين وكذلك في بلاد المغرب، وعهد بأعمال الجباية إلى النصارى المقيمين في مدينة مراكش"[1].والشيء الذي لا تنكره الوثائق والدراسات اليهودية نفسها أن للجاليات اليهودية شخصيتها الميزة في العصر الوسيط، وذلك من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/ 912-961م) إلى زمن الموحدين أي ما بعد سنة (539هـ/ 1144م).ولم ينشأ في أي من المجتمعات اليهودية الأخرى مثل هذا العدد الكبير من اليهود ممن أحرزوا مناصب مرموقة بل مراكز نفوذ في العالم اليهودي، كما لم تُنتج أي من تلك المجتمعات مثل هذه الثقافة الأدبية التي ينعكس فيها مع آخرين من غير اليهود.

واستمر نفوذ اليهود الذين خضعوا للدولة الإسلامية بالأندلس، في ظل حضور الثقافة العربية والإسلام لزمن طويل واضح الحضور في لغتهم وقواعدها وصرفها وأدبها إلى ما بعد أفول نجم الحضارة الإسلامية في الأندلس خاصة، رغم المكانة الكبيرة التي كان عليها اليهود في العراق ومصر، فإن يهود الأندلس من أيام الفتح إلى نهاية القرن السبع الهجري، الثالث عشر الميلادي كانوا في مرتبة عالية من التحضر والمكانة السياسية والثقافية، وقد عادت الفتوحات الإسلامية الكبيرة من فارس إلى أسبانيا في القرنين السابع والثامن الميلاديين بالكثير والرخاء على اليهود وعندما انتشر خبر فتح المسلمين للأندلس ومنح الحريات لليهود في أنحاء أوروبا هاجر كثير من يهود أوروبا إلى الأندلس، وكان اليهود يتجمعون في مدن معينة مثل

---

[1] منى حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص :171.

قرطبة ومالقة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة وغرناطة وألبيرة وأليسانة التي كان سكانها من اليهود فقط ولا يداخلهم فيها مسلم، فراجت تجارتهم داخل الأندلس وخارجها، وكان اليهود يحتكرون بعض المهن والحرف والصناعات التي يرون أنها تدر عليهم أموالا طائلة، واحتكروا بعض أنواع التجارة كتجارة العبيد والجواري البيض والحرير والتوابل[1]، وجمع اليهود الذين كانوا يعيشون تحت ظل الحكم الإسلامي في الأندلس أموالا طائلة، وكانوا لكثرة ثرائهم يرسلون الأموال إلى اليهود الفقراء خارج أسبانيا[2] حتى كان يلجأ إليهم يهود العالم لجلب الإعانات، فلما أسر ابن رماخس في عرض البحر أربعة من الأساتذة اليهود ،وبعد التحري عنهم عرف الربان أنهم من سورات (*Sura*) في الهند؛ مقصدهم الأندلس لجلب إعانات اقتصادية للأكاديميات اليهودية من يهود الأندلس الأغنياء[3].ولم تكن الجالية اليهودية مضطهدة بل وجدت الفرص متاحة للاختلاط اليومي، بحكم الجوار والبيئة الواحدة،وأثبتت الوثائق والنوازل والمعاملات اليومية[4]، رغم أن فتاوى سابقة على هذا العصر قد ألزمت يهود القيروان بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم وهيئاتهم، وأفتى يحيى بن عمر بن لبابة الأندلسي (ت.289هـ/ 901م) أن يعاقب اليهود والنصارى الذين يتشبهون بالمسلمين بالضرب والحبس ويطاف بهم في مواضع اليهود والنصارى ليكون ذلك تحذيرًا لهم لمن رآهم منهم وزجرًا[5]. قال ابن عبدون المعاصر للحقبة

---

(1) عز الدين عمرو موسى، المرجع السابق، ص:110. بوتشيش، المرجع السابق، ص:97.

(2) محمد بحر عبد المجيد، المرجع السابق،ص: 20-21. عبد الإله ميسوم، تأثير الموشحات في التروبادور، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981م. ص:142 وما بعدها.

(3) ريموند. ب.شايندلين، المرجع السابق، ص :301.

(4) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى"النوازل والأعلام" ، تحقيق المحامي رشيد بن حميد النعيمي، الرياض، شركة الصفحات الذهبية المحدودة،1417هـ/1997م.، الجزء الثاني، ص :948.

(5) يحيى بن عمر الأندلسي، كتاب أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي(صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد) المجلد الرابع، العددان الأول والثاني، 1375هـ/1956م.ص:128.

المرابطية: "ويمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم، والتكشيف عليهم ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، أو بما هو من أبّهة، ومن ركوب الخيل بالسروج والزي بما هو زي المسلمين، كالشكلة في حق الرجال، والجلجل في حق النساء، ويمنع المسلمين أن يحاولوا لهم كل ما فيه خساسةٌ أو إذلال للمسلمين، كطرح الكُنَاسة ونقل آلات الخمر، ورعاية الخنازير، وشبه ذلك، لما فيه من علوٍّ الكفر على الإسلام، ويؤدب من فعل ذلك[1] ويبدو عدم التزام السلطة السياسية العليا المرابطية بأحكام أهل الذمة وهذا مرده إلى التسامح الذي انتهجه حكام الدولة مع اليهود والنصارى المعاهدين لذلك تشددت كتب الحسبة على القضاة والأمراء من أجل تطبيق أحكام الشريعة فقال ابن عبدون: "يجب ألا يحك مسلم اليهودي؛ ولا النصراني، ولا يرمي زبله ولا ينقي كنيفه، فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذا الصنع، لأنها صنع الأرذلين، لا يخدم مسلم دابة يهودي، ولا نصراني، ولا يستزمل له ولا يضبط بركابه، وإن عرف هذا أُنكر على فاعله[2].

[1] ابن عبدون الإشبيلي، المصدر السابق، ص:122.

[2] واتهم ابن عبدون نصارى العصر بالفسق فقال: يجب أن يمنع النساء المسلمات دخول الكنائس المشنوعة، فإن القسيسين فسقة زناة لوطة، يجب أن تمنع الإفرنجيات من الدخول في الكنيسة، إلا في فضل، أو عيد، فإنهن يأكلن ويشربن ويزنين مع القسيسين، وما ومنهم إلا وعنده منهن اثنتان أو أكثر، يبيت معهن، وقد صار عُرْفًا عندهم، لأنهم حرَّموا الحلال، واستحلوا الحرام، يجب أن يؤمر القسيسون بالزواج كما في ديار المشرق، ولو شاؤوا لفعلوا، يجب أن لا يُترك في دار القسّيس امرأة، ولا عجوز، ولا غيرها، إن تأبَّى الزواج، يجب أن يُجبروا على الختان، كما كان يفعل بهم المعتضد عبَّاد؛ فإنهم متبعون بزعمهم لسنن عيسى، وعيسى قد اختتن، ولهم في يوم اختتانه عيد يُعظمونه، ويتركون ذلك، يجب أن لا يذبح يهودي لمسلم، ويؤمر اليهود أن يتخذوا أوضامًا لأنفسهم، نفسه، ص:48.

## 3- حضور اليهود بالأندلس المرابطية بين وثائق جنيزة القاهرة ووثائق العصر الخطية

حاول المختصون استقراء وضع اليهود في الأندلس وتطور جالياتهم ومراكز استقرارهم، وحفظت لنا كنيس الجنيزة وثائق تفيد في استعادة صورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعالم البحر المتوسط في تلك الفترة وبعض تلك الوثائق يتصل بالأندلس إما مباشرة أو استنتاجًا حيث تضم وثائق الجنيزة مراسلات ووثائق في غاية الأهمية، ولكننا مع ذلك لا نملك ما يشبه السجلات والدفاتر الخاصة بعبور التجارة الدولية أو سجلات محاكم التفتيش التي عرفتها إسبانيا المسيحية في مطلع القرن السادس عشر، أو سجلات الكنائس ودواوين الجند والغرباء أو الطارئين على البلاد، حيث يعاني منها عالم العصور الوسطى كما ذهب إلى ذلك ريموند شايندلين ( *Raymond P.Scheindlin*) أستاذ الدراسات العبرية والأدب العربي.

إن أهم ما قدمته وثائق جنيزة القاهرة، معلومات فائقة القيمة المبرزة للعلاقات الكبيرة التي ربطت اليهود في الحوض الغربي للمتوسط بيهود المشرق والعالم حتى بلاد الهند والصين، وكان ذهب إفريقيا الغربية الرائج في عهد المرابطين من أجود أنواعه، حتى استعملت وروجت الدنانير الذهبية المرابطية في عام 1167م من طرف ملوك أوروبا، ووثائق الجنيزة تشير إلى تعامل المصريين ويهودهم خاصة بهذا المعدن النفيس[1].وأجود ذهب أهل

---

[1] انظر تقييم خاص للباحث روالد ميسي *(Rouald A.Messier)* في بحث قيم عن ذهب عصر المرابطين في ملتقى جامعة بنغهامبتون نوفمبر 1973م.

Rouald A. Messier, "The Almoravids West Africain gold and the gold currency of the Mediterranean basin" dans *Journal of the Economic and Social History of the Orient, p. 31-47.P:31.* =

الأرض وأصحه، ذهب السودان الغربي، الذي سيطرت عليه حركة المرابطين التي قامت على أكتاف قبيلة لمتونة بالأدرار الموريطاني بالتحالف مع مسوفة وجدالة وأمنت هيمنتهم للحفاظ على هذا الذهب إلى غاية شمال النيجر، حيث تكونوا وتوحدوا لمقاومة مملكة غانة الشهيرة التي كانت قد احتكرت ملح تغازة وذهب المنطقة، وحاولت العناصر اليهودية بخبرتها التجارية تكوين شبكة من الوسطاء من الحواضر المعروفة إلى غاية وصوله إلى المدن ودور الضرب والأسواق العالمية، وخاصة بعد تحقيق المرابطين للوحدة المغربية الأندلسية، إذ أدّى يهود درعة وسجلماسة وماسة -كما تشير الوثائق دورًا- محوريًا في التبادل التجاري بين الغرب الإسلامي والمشرق وممالك أوروبا[1].إن الغنى الذي تميزت به منطقة ماسة عن باقي مناطق المغرب هو الذي جعلها قبلة للتجار، حتى أن بعض العناصر اليهودية فضلت الاندماج بالسكان لممارسة الأعمال التجارية، ومن الطبيعي أن يتحالف يهود درعة وسجلماسة، مع بقية عناصر الجاليات اليهودية بالأندلس ومصر كما تشير وثائق الجنيزة[2].

وقعت بعض الدراسات اليهودية في تناقضات كثيرة بين واقع اليهود التاريخي في الأندلس والمغرب أيام المرابطين الذي تميز بالتسامح الذي

---

= سامح عبد الرحمن فهمي، إضافات جديدة في مسكوكات المرابطين ضرب المرية الأندلسية (530-536هـ/1136- 1142م) (حوليات إسلامية) المجلد الخامس والعشرون المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة، 1991م. ص:50.

[1] محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي (طور الإنهيار) الجزء الثالث، القسم الأول، ص:75.
الحسين بولقطيب، الحياة الاقتصادية للحلف المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين (مجلة الاجتهاد) العدد الثامن عشر، السنة الخامسة، بيروت،دار الاجتهاد، شتاء العام 1993م/1413هـ. ص:65.

[2] Pierre Guichard, "L'époque almoravide; perspective d'ensemble" *in Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval X^e-XV^e siècle*, Paris, Puf, 1995, p. 151-167.

أشارت إليه الأبحاث المنصفة، قال: قولدنبرج *(Goldenberg)* لكن وضعهم أيام المرابطين سوف يختلف تمامًا نظرًا لما حققته هذه الدولة ذات الطابع الديني المتعصب من توسع على حساب العديد من المراكز التي استقر بها اليهود بشكل مكثف، كمنطقة درعة وسوس »[1].التي تزعم إحدى الوثائق العبرانية أن أول مملكة قامت في المغرب هي مملكة يهودية بالريف[2] وذكر ابن عذاري أن يوسف بن تاشفين« افترض في سنة 464هـ/ 1072م) على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار[3]استعان بها على ما كان بسبيله وهو مبلغ باهض يعكس ثراء اليهود. وكانت أسباب هذه الفريضة غير معلومة السبب، لأن يوسف قد ملك أموال قبائل القبلة وأعطته زوجته زينب بنت إسحاق الأموال الغزيرة، وبها أركب الرجال وكون الحرس وأسس مظاهر القوة والملك، وجمعت له القبائل الأموال العظيمة، فجند بها الأجناد، وبهذه الأموال الكثيرة ضرب السكة ودون الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد واشترى جملة من العبيد السودان؛ وبعث إلى الأندلس فابتيع له من الأعلاج فأركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه، ويذهب أحدهم فيقول: إنَّ اقتصاد المغازي تحكم في توجهات الدولة المرابطية واعتمد أساسًا على الموارد الحربية بما فيها الجزية وشتى أنواع الضرائب الأخرى، فمن البديهي أن يمعن ابن تاشفين في استغلال اليهود؟[4] وفي سبيل تنفيذ خطته زعم أحد فقهاء قرطبة وربما بإيعاز من الأمير المرابطي نفسه، أنه وجد في بعض أوراق مؤلف صنفه ابن مسرَّة الجبلي القرطبي حديثًا منسوبًا إلى النبي يروي أن اليهود

---

[1] A. Goldenberg; *Les Juifs du Maroc*, Paris, Scribe, 1992, p. 62.

[2] بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص :92.

[3] ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص :23. مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق،ص :25.

[4] محمد الأمين بلغيث، النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،1989م.ص :58.

ألزمت نفسها أنها إذا جاءت عام الخمسمائة عام من بعد مبعث رسول الله، ولم يجئهم نبي منهم على ما زعموا، فإن الإسلام لازم لهم، لأنهم وجدوا في التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام إنَّ النبي الرسول الذي منعناه محمد، لابد من ظهور الحق على يديه، ونوره متصل باتصال الساعة، فإن لم يظهر منهم النبي فإنهم يعتنقون الإسلام إذا حلت المائة الخامسة من الهجرة[1]، واستغل الأمير المرابطي هذه "الوثيقة-الحجة" فجعل منها ذريعة لتخييرهم بين الإسلام أو التعرض لغرامة مالية ثقيلة، فاختاروا الحل الثاني بإيعاز من أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين أحد الفقهاء المساندين لسياسة يوسف في البحث عن المال بكل الوسائل وبذلك ضمن يوسف لسياسته ومشاريعه الأموال المطلوبة، فساهمت هذه الغرامة في سد نفقاته الكثيرة وشكل نصيب يهود أليسانة حصة الأسد منها، خاصة أنهم اعتبروا أغنى اليهود آنذاك[2] وبرَّرَ أحدهم قيام علي بن يوسف بإجراءات احتياطية في مراكش، وهذا بمنع اليهود من المبيت في العاصمة ليلا، نظرًا للظرفية السياسية والصراعات الداخلية المتعددة في أكثر من جبهة في المغرب ضد ابن تومرت، وفي الأندلس ضد النصارى، ولذلك كان لا بد من الاحتياط في عاصمة الدولة، ومقر تجمع الجند، وما يتصل بذلك من خطط وتحركات عسكرية وتحقق خوف علي بن يوسف من اليهود فجاءت الخديعة والخيانة من أحد قادة الجيش المسيحي الموالي للمرابطين حينما فتح الأبواب للموحدين بعد حصار مرير انتهى باقتحام مراكش سنة 541هـ/ 1146م[3]. مما دفع بعض الكتاب إلى

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص :22

(2) الحلل الموشية، المصدر السابق، ص :80-81. بروكلمان، المرجع السابق، ص :323.

(3) مجهول، الحلل الموشية، المصدر نفسه، ص :138.عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان،1975م.ص:47.

القول بأن أهل الذمة عاشوا في اضطهاد في دولة المرابطين وأنهم لم يتمتعوا بحريتهم الدينية.

يقول بروكلمان عن يهود الأندلس في هذا العصر:اضطر يهود أليسانة وهم أغنى اليهود في الأندلس إلى أن اشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة في حين آثر غيرهم أن يبرحوا البلاد وهو عين ما فعله والد الفيلسوف ابن ميمون[1].وهذا خطأ تاريخي لأن أسرة ابن ميمون لم تغادر الغرب الإسلامي إلا في أوائل عهد الموحدين، وآثر الفيلسوف اليهودي صاحب "دليل الحيارى" الهجرة إلى مصر، فأصبح رئيس الجالية اليهودية كما هو مفسر في المدونات التاريخية[2].ويرى الباحث اليهودي حاييم الزعفراني أن يهود الأندلس قد عرفوا حياة أكثر رخاء وأكثر اطمئنان كما لم تعرفها منطقة أخرى، ونظرًا للوضع القانوني المتسامح فإن يهود الأندلس أدّوا دورًا أساسيا في الحياة الاقتصادية المزدهرة في البلاد كما كان لهم دورهم في الشؤون العامة.

عدد الدارسون وظائف اليهود الكثيرة بالمغرب والأندلس من أبسط المهن وأحقرها إلى السيطرة على مسالك الطرق التجارية والمدن الرئيسية القائمة في محطات معلومة في تاريخ الغرب الإسلامي وتقوم هذه المهن في مناطق تفترض الأمن والآمان مما تقوم حجة على رد كثير من الروايات المبالغ فيها التي تحدثت عن اضطهاد المرابطين لليهود والنصارى في عصرهم[3].كما أن نوازل العصر منذ الفتح قد صبغت روح التسامح

(1) بوتشيش، المصدر السابق، ص :، 99.انظر الإحالة رقم:169.

(2) بروكلمان، المصدر السابق، ص :323.

(3) فيليب فارج، يوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي والعربي والتركي، ص :67. موريس لومبار، المصدر السابق، ص:310. أدغار فيبير، في الجدل الديني في الأندلس والابستمولوجيا-

العلاقات الاجتماعية بين سكان الأندلس، فكان اليهودي يملك إلى جوار المسلم فقد تنازع يهودي مع مملوك مسلم خدمه، فقال اليهودي للقاضي: هو عبدي ابتعته من أهل طليطلة منذ أربع سنين[1]، كما تنازع مسلم بقرطبة مع اليهودي أبي إسحاق حول بيت المسلم حسان وشنوغة اليهودي وأفتى أبو الأصبغ عيسى بن سهل بأن وثائق حسان غير كافية وأفتى في نفس المسألة القاضي محمد بن فرج، فكان الأمر على ما في الفتوى والحكم والغموض في صالح اليهودي شنوغة. وتبرز النوازل العلاقات بين عناصر المجتمع الأندلسي في الميراث والوصية على الأيتام، والنزاعات حول العقار والشركات التجارية، مما يدل على أن المجتمع الأندلسي من المجتمعات الراقية في تاريخ الحضارة الإسلامية التي تحقق فيه التعايش والتسامح بين المجتمع المسلم وبقية الطوائف الأخرى من يهود ومستعربين أسبان[2].

إن الإجراءات التي قامت بها الدولة المرابطية لا تدعو إلى الاستغراب، خاصة لمن وقف على سياسة المرابطين المالية، إذ لم تكن سياستهم الضريبية تقوم على فرض معونات وجزية أو مصادرة بعض القبائل الثائرة أو اليهود وحدهم، بل يرى أحد الباحثين[3] أنَّ المرابطين جبلوا على فرض مغارم

---

- الحديثة، ترجمة الصادق الميساوي، (المجلة العربية للثقافة)، العدد السابع والعشرون،تونس، ربيع الأول، 1415هـ/1994م.ص:80.

[1] ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، الجزء الثاني، ص :887 وما يليها. ص :948 وما بعدها.

[2] محمد بن هارون الكناني التونسي، مختصر النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام للمطيتي (سنختزله بوثائق ابن هارون، نسخة العطارين)، رصيد المكتبة الوطنية بالعطارين، تونس رقم :18696.ص :218 وجه.المتيطي السبتي. النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، مخطوط رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية بالخامة رقم:1074.ورقة:73 ظهر.ابن رشد، مسائل ابن رشد، تحقيق التجكاني، الجزء الأول، ص :530..

[3] بوتشيش، المصدر السابق، ص :99.

ومكوس متنوعة على جميع الشرائح الاجتماعية كضريبة المعونة[1]، وضريبة التعتيب[2] وغيرها من الضرائب التي يقوم عليها كيان الدولة[3].وكانت هذه الضرائب وخاصة ضريبة المعونة الوقتية قد أوقعت يوسف بن تاشفين في أزمة مع الفقيه أبي عبد الله محمد بن يحيى بن البرّاء بالمرية الذي رفض ضريبة المعونة[4].ويصف الشريف الإدريسي المرية مؤكدًا على ضريبة التعتيب قال:"ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام وكان بها من كل الصناعات كل غريبة وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ثماني مائة طراز يعمل بها الحلل والديباج وعدد فنادقها تسعمائة وسبعين فندقا خاضعة للتعتيب"[5].وأكد نفس الضريبة وهو يتحدث عن مراكش.ورأى أن من حسنات الموحدين القضاء على الضرائب المستحدثة، وقتل أصحاب المكوس[6] مستدلين بما علمهم المهدي من أصول الشريعة.

كما أن الإدريسي وقد أنهى كتابه في زمن الفتنة أو مرحلة ملوك الطوائف الثاني فيصف قرطبة بأوصاف، تدل على معرفة بأخبار الأندلس في

---

(1) المعونة :ضريبة فرضها علي بن يوسف على أهل فاس وبعض المدن الأندلسية لبناء الأسوار ومساعدة جيشه بالعبيد فأعانه أهل فاس انظر : ابن القطان،نظم الجمان ،ص :152.

(2) التعتيب :لجأ المرابطون إلى فرض ضريبة تسمى التعتيب أو التعطيب خصصت لإقامة أسوار جديدة حول المدن وترميم القديم منها. شعيرة، المرابطون » تاريخهم السياسي »ص :152.

(3) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس،ص :200. الحسين اليعقوبي، في الفكاكة والفكاكين، (دراسات أندلسية)تونس، العدد السابع، رجب، 1412هـ/جانفي 1992م.ص:65.ص :62.

(4) منى حسن أحمد محمود، المصدر السابق، ص :179.

(5) الشريف الإدريسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص :563.

(6) وقف أبو حامد الغرناطي المعاصر للمرحلة المرابطية ناقدًا لنفس الوضع حينما وصف بلاد الهند قال :

" ويحترمون التجار المسلمين غاية الاحترام، ولا يؤخذ منهم عشور في بيع أو شراء ولا مكس، فيا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بهذه السياسة الحسنة فهم كانوا أحق بها ".أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص :42.

هذه المرحلة.ثم حدد مواقع سكنى اليهود في هذا الزمان فقال:"واليسانة مدينة اليهود ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود.وبه المسجد الجامع، وليس على الربض سور...واليهود يسكنون بجوف المدينة، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة، وأهلها مياسير أكثر غنى من اليهود الذين ببلاد المسلمين؛ ولليهود بها حذر وتحصن ممن قصدهم[1] واليسانة ضاحية قرطبة ومدينة اليهود؛ ووصف المدينة المشهورة وحاضرة الإسلام فقال: "ومدينة قرطبة في حين تاليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة وغيرها حلول المصائب والأحداث مع اتصال الشدائد على أهلها فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير[2].ثم يحدد موقعًا آخر لليهود فيقول : ومن مدينة طرطوشة إلى طركونة خمسون ميلا ومدينة طركونة على البحر وهي مدينة اليهود ومنها إلى برشلونة من الشرق ستون ميلا[3]. وحولها رجال " الاسترداد" إلى مكان تجمع أسرى المسلمين في القرن السابع الهجري. وهل يمكن اعتبار ما استحدثه المرابطون من ضرائب تابعة لنظامهم الخاص بالإقطاع العسكري، الذي حدثتنا عنه المصادر مثل صاحب الحلل الموشية البلنسي قريب عهد بالمرابطين، أو مثل ما ذكر الرحالة اليسع الغافقي المؤرخ (ت.بعد575هـ/ 1179م) الذي يقول عن النظام العسكري المرابطي بالأندلس : "وكان ترتيبهم في الأندلس، أنهم لم يزيدوا فارسًا على خمسة دنانير للشهر شيئًا، مع نفقته وعلف فرسه، فمن ظهرت نجدته وإعانته وشجاعته، أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده، وتركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين، لكونهم أخبر بأحوالها، وأدرى بلقاء العدو وشن

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، الجزء الثاني،ص :571. عبد الله الزبري ، المصدر السابق، ص:143 وما بعدها.

(2) ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، ص:299. الإدريسي، المصدر السابق، ص:579.

(3) الإدريسي، المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص :555.

الغارات، ولم يمكنوا من ولايتها أحد سواهم، مع إحسان إليهم، وكانوا متى وصلتهم خيل من العدو، بعثوا إلى أهل الثغور[1].

تمكن اليهود من تكوين رابطة يهودية بفضل ثرائهم الفاحش لافتداء أسراهم سواء من الأندلس المرابطية أو إسبانيا النصرانية، كما ظهر ذلك من خلال رسالة كتبها يهودي في طليطلة سنة 520هـ/ 1126م حول فدية سجينة يهودية في مملكة أراغون، ومما يعكس الوضعية الاجتماعية التي تبوأها اليهود أن بعضهم كان يملك العبيد وهو ما تشير إليه نوازل العصر كما جاء عند ابن سهل[2] وفي أحكام ابن زكون[3] ترد إشارات ملكية بعض اليهود عبيدًا ومماليك[4].كما تبين الوثائق المكتشفة في الكنائس بالثغر الأعلى وجود جالية يهودية كبيرة بسرقسطة عاصمة الثقافة اليهودية بشرق الأندلس، وكذا بوشقة (*Huesca*) والرِّيف المحاذي لمملكة أراغون، حيث أبرزت الوثائق وجود ممتلكات يهودية ومعاملات تجارية بين الجالية اليهودية والمستعربين الأسبان في تواريخ مختلفة، ففي سنة 491هـ/ 1098م وقبل سقوط مدينة وشقة(*Huesca*)بيد الملك بيدرو الأول (*Pedro 1$^{er}$*) أن ممتلكات كنسية أصبحت في حكم صاحبها ثباكسوردة (*Zavaxorda*) اليهودي، وتتمثل في ضيعة تابعة لكنيسة سان بيدرو (*San pedro de Séptimo*) شمال وشقة، وتدل الوثائق على ملكية اليهود لمساكن ومحلات تجارية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أن سقوط وشقة وحدودها الشمالية في 491هـ/ سبتمبر1098م، في يد المستردين الأراغونيين قد عجل برحيلهم إلى

---

[1] مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص :82. الطرطوشي، المصدر السابق، ص:107. الجنحاني، المصدر السابق، ص:44 هامش رقم:11..

[2] ابن سهل، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص :887 وما يليها.

[3] ابن زكون، اعتماد الحكام في مسائل الأحكام،ص :159.

[4] بوتشيش، المرجع السابق، ص :98.

داخل المدن الإسلامية التي لا تزال تحت سلطان المرابطين، كما أن بالمنطقة والريف الشمالي للثغر الأعلى عقارات للجالية اليهودية بما في ذلك مقبرة قديمة تدل على استقرار الجالية منذ مدة بالمنطقة إلى غاية سقوط عاصمة الثغر الأعلى سرقسطة البيضاء عام 522هـ/ 1118م.مع العلم أن الثغر الأعلى منطقة حَسَّاسَة لأنها تمثل أهم مراكز الإحتكاك الحربي بين نصارى الشمال وممالكهم المتعددة والدولة الإسلامية في العصر الأموي أو دولة بني هود أو أيام المرابطين وحروبهم المريرة بالمنطقة إلى غاية سقوط العاصمة سرقسطة[1].

كما تثبت الوثائق الكنسية وجود جالية يهودية كبيرة بطليطلة قبل سقوطها بيد ألفونسو السادس، وهو ما أثبتته وثائق العصر ومنها يهود طلبيرة وغرناطة وطليطلة حسب نوازل محمد بن أحمد بن الحاج القرطبي (ت.26 رمضان 539هـ/ 1135م).

ومن الوثائق المعاصرة نكتشف وجود معاملات تجارية وبيع عقارات بين الجالية نفسها وإن كانت الأسماء المذكورة في العقود يبدو عليها التحريف وكأنها أسماء عربية، ومن الوثائق المكتشفة في هذا عملية بيع نصف حقل عنب المستصلح من طرف شميلة (*Chamila*) بنت فرش (*Farach*) زوجة بالينزي (*Belinsi*) البناء لصالح الربي ابن إسحاق بن نحميس (*Rabi Binshac*) اليهودي بمبلغ ثلاثمائة مثقال مرابطي[2]. وسرقسطة هي موطن أبي الفضل بن حسداي (ت 515هـ/ 1121م) الشاعر والموسيقار،كما عرفت المدينة الفيلسوف اليهودي إسحاق بن سمعان

---

[1] Pedro Chalmeta, *El concepto de Tagr, (La marche Supérieure d'Al-Andalus et l'occident chrétien)*Casa de Velazquez, Madrid, 1991. p.28

[2] F. Bezler, *Chrétiens. Juifs et Musulmans dans l'Espagne Musulmane* ; p. :102. note. 25.

خليل إبراهيم صالح، السامرائي الثغر الأعلى الأندلسي دراسة في أحواله السياسية (95-316هـ/714-928م) بغداد، مطبعة أسعد، 1976م.ص :40.

القرطبي صديق فيلسوف عصر المرابطين ابن باجة، وهو الآخر من الشعراء والمهتمين بالموسيقى[1] والأشعار الغنائية.وتثبت وثائق الجنيزة نفوذ أثرياء اليهود بالأندلس في هذا العصر، حيث تشير رسالة أحد اليهود المتنفذين التي أرسلها إلى أحد أصدقائه يطلب منه فيها الاتصال بأقاربه وبصاحب الشرطة لإطلاق سراح سجينة يهودية في مملكة أراغون، وهذا بفضل ثرائهم الفاحش فتمكنوا من تكوين رابطة يهودية لافتداء أسراهم سواء في أسبانيا النصرانية أو الأندلس المرابطية[2]، مما ينهض حجة على نفوذهم الواسع.وحظي اليهود في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بالمعاملة الحسنة، باستثناء منعهم من المبيت بالعاصمة مراكش لظروف استثنائية، ومما يدل على المعاملة الحسنة وعدم التعسف مع يهود فاس أن أمير المسلمين كما يشير ابن أبي زرع حينما أراد توسعة جامع القرويين وجد أرضًا في ملكية اليهود بجواره، فلم يغتصبها بل اشتراها منهم بالزيادة في ثمنها[3].

تعامل المرابطون على نطاق ضيق مع الغرب اللاتيني، وفضلوا ترك مثل هذا التعامل التجاري لمن رسخت أقدامهم في هذا الميدان من سكان المدن الإيطالية واليهود الذين ترددوا على طرق التجارة الواصلة بين براغ وشمال فرنسا ومن أسواق الرقيق في الأندلس،ولعل تجارة الشرق وتجارة الصحراء استوعبتا كل نشاط التجار المسلمين،كما شرع تجار بيزا في تثبيت أقدامهم في تونس وبجاية وسواحل المرابطين المتوسطية[4].وكان التجار المغاربة والأندلسيون -على اختلاف مذاهبهم ومدنهم- يرتادون مجاهل إفريقيا في

[1] *Zafarani, Traditions poétiques op. cit. ,p:89*

[2] Goitein ; *A Mediterranean, op. cit.*, p. :332-335.

[3] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص :39.

[4] أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص :474. دندش، المرجع السابق،ص :209.سحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي، ص:234.

اتجاه تشاد؛ النيجر؛ صنغاي؛ وغانة بغرض التجارة ونشر الإسلام[1] وهو ماتثبته وثائق الجنيزة التي نشرها الباحث جويتاين[2]. وتمكنت البحرية المرابطية بقيادة ابن ميمون من حماية الواجهة الغربية للبحر المتوسط وتأمين الطرق البحرية والسهر على حراستها، وبالرغم من غياب علاقات سلمية[3] بين الغرب الأوروبي ودولة المرابطين فإن الجانب التجاري والعلاقات التجارية كانت متطورة بشكل عام، وهو ما تدل عليه تدفق السلع من الصين وبيزنطة وإيطاليا إضافة إلى المشرق الإسلامي، ومن الجدير بالملاحظة أن المستعربين واليهود قاموا بدور الوسيط التجاري بين الأندلس المرابطية وبين أسبانيا المسيحية وأقاليم البحر المتوسط وبيزنطة والغرب الأوروبي من جهة وبينها وبين المشرق الإسلامي من جهة أخرى كما أن اليهود-بصفة خاصة- أدّوا دورًا هامًا في التجارة الدولية في العصور الوسطى، إذ كان لهم النصيب الأوفر في التبادل التجاري بين الشرق والغرب، باعتراف المؤرخين المسلمين والمسيحيين نظرًا لحالة الحرب التي تعرفها الأندلس مع الممالك الأسبانية، بالخصوص منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي[4]، وهذا ليس معناه انعدام العلاقات التجارية بين الأندلس منذ أيام قرطبة الأموية،بل تشير الوثائق إلى علاقات تجارية قوية، أشار إليها قدماء الكتاب، حيث كانت السلع النادرة كالحرير والجواهر وسبائك الذهب المصنعة والجواري الصقلبيات تمر عن طريق غاليسية، قادمة من أوروبا الوسطى نحو الأندلس والمشرق، وساعدت هذه التجارة الدولية التي احتكرها اليهود، سواء في حوض المتوسط، أو أوروبا أو آسيا[5]، إلى ربط علاقات وثيقة بين يهود العالم وربطت هذه السيطرة والشبكة المتينة بين الجاليات اليهودية المتفرقة عبر أقطار

---

[1] فخّار، بنو برزال لمسيلة في البرازيل أو أسطورة كريستوف كولمب، ص:44.

[2] *Goitein ; A Mediterranean,. op. cit., p.13*

[3] التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الخامس (عهد المرابطين)ص: 190.

[4] كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، ص : 5338.

[5] فيشل، يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، ص :109.

العالم، كما ربطتها علاقات قوية وتبادلوا المصالح وهو ما تثيره المراسلات الدائمة، ولم يقتصر شكل هذه المراسلات الضخمة حول المسائل التجارية، بل تعدتها إلى المسائل الفقهية والدينية، وهي مراسلات جرت بين مختلف الطوائف التي كانت راغبة في وجود مرجعية دينية، وقد كان القطب والمرجعية التشريعية اليهودية حسب الوثائق اليهودية، هي بغداد والعراق عمومًا، لهذا حرص اليهود على جمع التبرعات بسخاء لحفظ الوثائق وتبادل الكتب والمعلومات والقيام بنفقات حفظ الأكاديميات اليهودية في بلاد العراق وفلسطين، وهي بمثابة مراكز عالمية لليهودية، وقد تحكم يهود العراق لفترة طويلة في احتكار السيادة على بقية الجاليات اليهودية في العالم بما في ذلك الجاليات اليهودية بالأندلس والغرب الإسلامي عامة، إلى غاية القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي[1]. وهذه المكانة تفسرها حالة الأمن والرخاء الذي اكتسبته الجالية اليهودية من عصر المرابطين -مع استثناءات بداية الفتح وتوحيد المنطقة-وهو ما أعطى للعملة المرابطية القوة والنفوذ لسيطرة المرابطين على أهم مصادر الذهب والفضة بالمغرب والأندلس،كما كانت موانئ المغرب والأندلس من أنشط الموانئ التجارية في عالم العصور الوسطى، وكاد الدينار المرابطي منافس عملة بيزنطة رغم قوتها،وأصبح الدينار المرابطي عملة دولية.

أُطْلِقَ على اليهود الذين يستغلون الطريق البحري بين بلاد الإسلام وأوروبا اسمْ تجار البحر[2] وكانوا يتكلمون عدة لغات من بينها العربية والفارسية واللاتنية، وتبدأ رحلاتهم من بروفانس في جنوب فرنسا، ويعبرون بسفنهم البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء الفرما، ثم يحملون تجارتهم على ظهور الدواب إلى القلزم، ومن هناك تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانيه

---

(1) لومبار، المرجع السابق، ص:311.

(2) ابن الفقيه الهمداني، البلدان،"ليدن، 1967م.ص:270، موريس لومبار، المرجع السابق، ص:313.

الهامة مثل جدة، ثم يخرجون إلى بحر العرب متوجهين إلى ميناء عدن، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، وفي طريق العودة إلى أوروبا كانوا يحملون معهم سلع الشرق، فإذا وصلوا إلى القلزم، اتجهوا إلى الفرما أو الفسطاط والإسكندرية ومنها يبحرون إلى بروفانس، وأحيانًا كانوا يتوجهون إلى انطاكية أهم ميناء تجاري في الشام، وكذلك إلى القسطنطينية عاصمة الروم لبيع بضائعهم فيها[1].

رغم التحول الكبير للجالية اليهودية في عهد المرابطين الذين يملكون أكاديميات دينية في قرطبة واليسانة وطليطلة وسرقسطة ووشقة وغرناطة، وكانت الجالية اليهودية في هذا العصر مدار البحث من أغنى المجموعات والجاليات المتواجدة بالأندلس، مما أحس البعض منهم بالخوف من النظام المرابطي في أيام يوسف بن تاشفين والمرحلة الأولى لحكم أمير المسلمين علي بن يوسف، لهذا عرفت الأندلس هجرة يهودية منتظمة نحو طليطلة للدخول في خدمة السيد الجديد ألفونسو السادس، كما أن وثائق الجنيزة لاتربط هجرتهم نحو الآفاق للإضطهاد الذي تعرضوا له بل تذكر الوثائق أن يهود الغرب الإسلامي،والصيارفة منهم بالخصوص قد هاجروا في حدود 535هـ/ 1140م إلى سيلان، ولأن دور اليهود في التجارة الدولية سيصبح ثانويًا، حيث أخذت منهم هذا الدور في الغرب البيوت التجارية والمصارف الإيطالية[2].

كانت طليطلة من أنشط مراكز التبادل الحضاري بين العالم الإسلامي والمسيحي، حتى أنَّ ألفونسو السادس قد وكل رئاسة المدينة للمستعرب شِشْنَنْد (*Sisenando davidez*) الذي كان على درجة كبيرة من التسامح، مقارنة بغيره، وقد عمل ما بوسعه لمنع ألفونسو من نقض مواثيقه وعهوده

---

[1] صفاء حافظ عبد الفتاح، الموانئ والثغور المصرية، ص:178.

[2] عز الدين موسى، المرجع السابق، ص:110.هامش رقم:5. لومبار، المرجع السابق، ص:317.

المعطاة للمأمون قبل وفاته، حيث كان بعض المستعربين يقدرون حسن معاملة المسلمين لهم، فوقفوا منهم موقفًا وديا إبان المحن التي أصابتهم عند تفرق أمر الأندلس على أن البعض منهم اتخذوا موقفًا عدائيا من المسلمين عندما رجحت لهم الكفة في الصراع الدائر على شبه الجزيرة، ويبدو هذا بوضوح في غزوة أذفونش المحارب ملك أراغون عام 519هـ/ 1125م ولكن تحت تأثير رهبان كلوني (*Cluny*) الفرنسيين وبتأثير برنار (*Bernard*) رئيس أساقفة دير سهاجون وأسقف طليطلة فيما بعد،وفي أثناء غياب ألفونسو وبتشجيع من زوجته الفرنسية الأصل تواطأت مع الرهبان وحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة في ربيع الأول سنة 498هـ/ ديسمبر 1104م، وهو من الأعمال المتسرعة التي أثارت ضجة كبرى أثارها فقهاء الإمارات الأخرى. وكانت العربية بطليطلة اللغة الأولى في الإدارة والمراسيم التشريفية، كما كانت إلى غاية مطلع القرن السادس عشر، إلى أن تحولوا إلى اللغة الرومانسية المعروفة بالخميادة (*Aljamiado*) [1].

ومما يبرهن على وجاهة ما ذهبنا إليه أن اليهود الردادنة[2] تخصصوا في أوروبا آنئذ في تجارة الرقيق في حوض الرون، حيث كان المسلمون واليهود في الأندلس يذهبون إلى براغ لشراء الرقيق والقصدير والقندس، ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية إلى ثغر بجانة، ويتبعون الطريق التقليدي إلى الفرما نحو الشرق وإلى أقصى بلاد الصين[3] بداية من القرن التاسع الميلادي، ونظرًا لاعتماد المسلمين على المسالمين من المستعربين واليهود لقضاء حوائجهم الداخلية والخارجية في الممالك الأوروبية، اعتمادًا ضاق الناس به

---

(1) الزيري، المصدر السابق، ص:73.

(2) اليهود الرذاذنة :هم يهود سوق الأهواز حسب اعتقاد فيشل وليس نسبة إلى يهود الرون (بروفانس) بفرنسا: ولتر.ج.فيشل، يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، بيروت،دار الفكر، 1408هـ/1988م.ص :52.

(3) يسمي لومبار يهود بروفانس اليهود الردانية الذين نعرفهم بواسطة نص مهم لابن خرداذبة (ت.748م). موريس لومبار،المرجع السابق، ص:313.

ذرعًا في عصر المرابطين لأن أمر الحل والعقد كاد-أو آل إليهم- بصورة متعاقبة في بعض الممالك الإسلامية، وهذا ما عبر عنه قاضي المرابطين أبو الحسن يوسف بن محمد بن الجد(ت.515هـ/ 1121م) [1]، حيث قال:(الوافر ) :

| | |
|---|---|
| تَحَكَّمَتِ اليهود على الفروج | وتاهت بالبغال وبالسروج |
| وقامت دولة الأنذال فينا | وصار الحكم فينا للعلوج |
| فقل للأعور الدجال هذا | زمانك إن عزمت على الخروج[2] |

ودارت على ألسنة الأندلسيين أشعارًا لم تنسب لصاحبها ابن الجد كما فعل ابن فضل الله العمري.فهل وصل أمر السيطرة الدولية لليهود إلى هذا الحد في الغرب الإسلامي، وقد أدى هذه الأمر إلى إحساس اليهود بأنهم بضيق فقال أحدهم إلى أبيه يافث اللامي بن علا بالمرية وهو يتحدث عن فاس كره اليهود فاش في هذه البلاد حتى أن المرية بالقياس رحمة[3].

## 4- مهنة الفكاكة والدور اليهودي الدولي في غرب المتوسط

احتكر اليهود في زمن المرابطين خطة الفكاكة وهي خُطَّة أصبحت متداولة في اللغات الأوروبية (*Alfaqueque*) والفكاك: هو القائم على فك وفداء أسرى المسلمين والتجول في الممالك الأوروبية وفي دار الإسلام

---

[1] يبدو أن ابن الجد كان شاعرًا مجيداً ولولا معاقرة العقار لملأ ذكره البلاد كما قال ابن بسام، الذخيرة، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص ص:556-562.

[2] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأقطار، الجزء السابع عشر، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية،1988م.ص :321 الحسين اليعقوبي، في الفكاكة والفكّاكين، ص:65.

[3] أمين توفيق الطيبي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي من خلال رسائل جنيزة القاهرة (مجلة البحوث التاريخية) مركز دراسات الجهاد الليبي، السنة السادسة، العدد الثاني، يوليو 1984م.ص:447.

والأندلس خاصة لفك الأسرى، وأصبحت كتب الأحكام[1] تتضمن بابًا كبيرًا يتضمن شروط هذه العقود القائمة بين الفكاك وأهل الأسير أو السلطة السياسية العليا في الأندلس فكان اليهود من أوائل من مارس الخطة-من غير العبَّاد والنبلاء-في المحيط الإسلامي والمسيحي على السواء بداية من القرن التاسع والعاشر لاختصاص اليهود الردادنة بالتجارة في ممالك الشمال كما ذكر غير واحد من المؤرخين وحتى الأدباء كالجاحظ، ثم دخل التجار المسلمون والمستعربون في هذه الخطة إلى أن آل الأمر أن يتنافس فيها القساوسة والشركات والجمعيات الدينية[2].وكثيرًا ما يتحول التجار اليهود إلى فكاكين للأسرى، كما رأينا يهود طليطلة في نوازل محمد بن الحاج[3].

وتطورت مهنة الفكاك في غرب المتوسط خلال القرن الثالث عشر على إثر تطور عمليات القرصنة بين المسلمين والأمم الأوروبية الأخرى بالمنطقة.

---

(1) من الأسر العالمة الشريفة العاملة بالغرب الإسلامي التي تلجأ إليها العائلات لفك أسراهم عائلة بني عشرة بسلا فهذا الشاعر محمد بن سوار الأشبوني ويكنا أبا بكر ، أسره الروم بمدينة قورية مدة من الزمن ثم فداه أحد بني عشرة أعيان سلا فأكثر من مدائحه فيهم.

(2) « الفكاكة » :الفكاك خطة من يتولى فك أسرى الجهاد الثغري، أو الجهاد البحري، أو القرصنة، من بلاد النصارى والعمل على إرجاعهم بعد فديتهم من دار الضلالة.انظر : الجزيري، المقصد المحمود، ورقة:80 وجه. البعقوبي، في الفكاكة والفكاكين،ص :62. ميسوم، تأثير الموشحات في التروبادور،ص:182.أحمد مهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد"رحلة الغزّال وسفارته إلى الأندلس"، حققه وقدم له إسماعيل العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1980م.ص:35. عبد الناصر جبار، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب المتوسط في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، 14-15 للميلاد، رسالة ماجستير في الآداب مخطوطة، إشراف حامد زيان غانم، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1411هـ/1990م.ص:157 وما بعدها.

(3) نوازل ابن الحاج، ص:293-294.انظر: الملحق رقم:10. من أطروحتنا.محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، المجلد الثاني.ص:698.ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، السفر الثالث، قطر، بيروت دار إحياء التراث الإسلامي، دار الغرب الإسلامي 1407هـ/1987م.، مسألة رقم:521. ص:1423 وما بعدها. النازلة سأل عنها الأمير أبو طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين (ت.520هـ/1127م)

كيف أمكن أن يصل اليهود إلى هذه السطوة ومثل هذه المراكز؟وقد تكون الإجابة بسيطة عند جل المؤرخين، وهي أن هؤلاء الذين وصلوا إلى أعلى الخطط السياسية التنفيذية في عهد ملوك الطوائف، تقول: إنَّه التسامح وأن هؤلاء اليهود لا يملكون دولة، ولا يمكن أن يطمع أحدهم أقصى ما يتمناه هو الجاه والسلطان والثروة، وهو ما وفرته لهم ظروف توليهم جباية الأموال للمسلمين في عصر الطوائف وفي مملكة ألفونسو السادس أيضًا؛ حيث كان لهم حسب الدراسات التاريخية نفس مبرر ملوك الطوائف، أي عدم طمع اليهود في القيام بانقلابات سياسية على عروش هؤلاء الملوك والأمراء؛ وأدى استحواذ اليهود واستبدادهم بالسلطة والنفوذ إلى ثورة وسخط تأجج في صدور الرعية ضد حكامهم وسياستهم المتخاذلة، نتيجة لاستئثار اليهود في عصرهم بالمناصب الكبرى، أمثال شموئل بن نكديلا الذي أصبحت له حظوة كبرى عند حبوس وباديس وملوك غرناطة، ويوسف ابنه الذي أصبح وزيرًا لبلكين بن باديس، فأثروا وأثروا معهم غيرهم من اليهود[1].فقد كان لدى حكام الأندلس في العصر الأموي وفي عهد بني عامر وعهد الطوائف عامة حافزًا قويًا يدفعهم للاعتماد على اليهود في الأمور الدبلوماسية والمالية والإدارة العامة، ذلك أن اليهود لم يكن بمقدورهم أن يطمحوا إلى السلطة السياسية العليا، ولذا فخطرهم على النظام القائم كان أقل من خطر المسلمين الذين قد يطمحون إلى تولي الحكم بأنفسهم[2]. وإذا كانت الأندلس في العصر الإسلامي مركزًا تجاريًا دوليا هامًا، كما كانت تصلها بضائع الشرق والغرب، حيث كانت المدن الأندلسية أسواقًا للتجار الأندلسيين والأجانب، يقومون فيها بأعمال التجارة البعيدة أو الدولية، وبقيت التجارة الأندلسية شديدة الارتباط بمناطق أخرى من عالم المتوسط الإسلامي طوال غالبية العهد الإسلامي، من أواسط الفترة الأموية

---

[1] ريموند شايندلين: المرجع السابق،ص :305.

[2] عبد الله الزيري، المصدر السابق، ص :66-68.

في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي حتى ذروة الانتصارات المسيحية في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فقد كان التجار وبضائعهم يتقلون بحرية على امتداد الخطوط البرية والبحرية التي تصل الأسواق الأندلسية بأسواق المغزب والمشرق، وكانت مدن مثل المرية وإشبيلية ومالقة تقوم بدور مخازن التصريف التجارية، حيث كان يقوم بأعمال الاستيراد والتصدير تجار مسلمون ويهود ومسيحيون[1].وإذا كان حظ اليهود كبيرًا في هذه التجارة نظرًا لاكتشاف وثائق الجنيزة، فكذلك كان حظ المسيحيين كبيرًا نظرًا لاكتشاف أرشيفات الكنائس والأديرة في السنوات الأخيرة. أما حظ المسلمين الأندلسيين فيكاد يكون نادرًا مع شهرتهم وكثرة تجوالهم في العالم، لأن كتب السلاسل والطبقات لا تهتم إلا بالعلماء والصلحاء، فإذا كانوا من فئة العلماء التجار فحظهم أكبر في تدوين سيرتهم وإن كانوا من فئة التجار فلا يذكرون إلا عرضًا، ولهذا فإن حظهم في التجارة الدولية في غياب الوثائق، يترك المؤرخ في حيرة من أمره في غياب النصوص لأن ما هو طاغ في النصوص التاريخية الخاصة بالمعاملات التجارية يخص اليهود دون غيرهم من بقية عناصر المجتمع الأندلسي[2].أي أن الوثائق المتوفرة ذات المعلومات المحدودة لاتتحدث إلا عن التاجر العالم، وثمة مصادر هامة أخرى عربية، مثل كتب الحسبة وكتب النوازل، التي تتوفر على معلومات متفرقة، شأن كتب الجغرافيا والرحلات الحجية وغيرها من الكتب الأدبية، حيث كان الأندلسيون أشد تجار المعمورة ارتباطًا بأبناء بلدهم وإقليمهم، حيث إنَّ روابط الولاء والهوية الظاهرة المستقلة كانت تسير في الاتجاهات العامة للمجتمع الأندلسي، لأن التعاون الاقتصادي يغلب أن ينمو في نفسيتهم حب الطائفة وأبناء الإقليم، حيث نجد مثالا على هذا الميل

---

(1) أوليفيا ريمي كونستبل، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ترجمة، عبد الواحد لؤلؤة (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الثاني، ص :1063.

(2) أوليفيا ريمي كونستبل، المرجع نفسه.

في رسالة كتبها موسى بن ميمون ينصح فيها ابنه أبراهام أن يحذر من الغرباء في رحلاته وألا "يصادق بإخلاص أية جماعة سوى إخوتنا الأحباء من أسبانيا، المعروفين باسم الأندلسيين".وكانت أسرة ابن ميمون التي عاشت معظم حياتها بالأندلس المرابطية، ولم تهاجر إلى مصر إلا بعد أن تمكنت الدولة المـوحدية من إمساك الأندلس بقوة، كان ابن ميمون يريد لابنه أبراهام أن يصاحب اليهود الأندلسيين، دون المسلمين أو المسيحيين من أهل الأندلس بالضرورة، ويظهر هذا الميل للارتباط الكثير بين أبناء الجالية اليهودية كما توضحه كثيرًا رسائل "كنيس القاهرة" وتظهر شبكة الشراكة بين التجار اليهود في الأندلس العاملين مع ثغور الشرق في العصر المرابطي[1]؛ حيث ساد التعاون والتفاهم بين اليهود في جميع أنحاء العالم من أسبانيا غربًا إلى الهند والصين شرقًا، كما أشارت وثائق جنيزة القاهرة إلى تلميحات ومعلومات نادرة عن أحوال المدن والبلدان التي يعيشون بين أظهر أهلها من المسلمين والمسيحيين الوثنيين[2]، مما يؤكد أهمية الاتصال في التجارة الدولية التي احتكرها اليهود، بما يملكون من خبرة في التفاوض، وهم الوسطاء في التجارة الدولية كما يقول المؤرخ الاقتصادي موريس لومبار، حيث تجدهم في كل مفترق الطرقات الخاصة بالتجارة الدولية، وفي الأندلس المرابطية كانت المجموعة اليهودية النشطة في التجارة الدولية ومعظم الصناعات والحرف المهمة تحت إشراف الحبر ابن يامين التُّطَيْلِي خلال القرن الثاني عشر.قال بروديل في عمله الكبير:المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني "لقد حكم على اليهود أن يكونوا كبار حرفيي التبادل، فها هم حتى ما بعد القرن الثالث عشر محترفو نقل الفكر والعلوم العربية إلى الغرب وفي القرن السادس عشر كانوا نقلة تقنيات وصناعات كثيرة من الغرب إلى الدولة العثمانية التي حملوا إليها فن صناعة الطباعة، كما كانوا يعيشون حياة

---

[1] كوابي، المرجع السابق، ص :273. ريموند شايندلين، المرجع السابق، ص :301.

[2] كونستبل، المرجع السابق، ص :1075.

الاضطرابات المتلازمة بين المجازر والطرد، كما أن الجماعات اليهودية في الأندلس قد اختلطت واندمجت بالأرستقراطية أكثر من اختلاطهم بالعامة، وكانت وحدتهم الأولية تتصل عن طريق التعليم والعبادة والانتقال الدائم للكتب ورجال الدين.

واليهود لا يشكلون عرقًا وهي حقيقة تاريخية، لأن جماعاتهم موزعة ومرتبطة بيولوجيا بالشعوب التي تقيم في كنفها قرونًا طويلة، وذلك بفعل تمازج الأعراق[1] كما كان يهود الغرب على حدِّ تعبير ابن الأثير يحلمون بيوم الخلاص رغم ما هم عليه من نعيم بالمنطقة قال وفي هذه السنة (487هـ/ 1084م) في ربيع الآخر رأى بعض اليهود بالغرب رؤيا أنهم سيطيرون فأخبر اليهود بذلك فوهبوا أموالهم وذخائرهم وجعلوا ينتظرون الطيران فلم يطيروا وصاروا ضحكة بين الأمم[2].ولا نعدم المعلومات الهامة التي نستقيها من مراسلات يهود الأندلس مع يهود القاهرة، حيث تشير بعض وثائق الجنيزة إلى وصول تجار مشارقة إلى الأندلس وإلى المرية تحديدًا ما بين 1138 و1140م حيث تسجل أخبارًا عن تجار مسلمين وصلوا الأندلس قادمين من الإسكندرية وليبيا، كا توجد نقوش قبور ثلاثة في نفسْ المدينة الأندلسية حيث دفن أصحابها في سنوات 519هـ/ 1125م)و527هـ/ 1133م) و540هـ/ 1145م) تشهد على حضور تجاري في النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي[3].

---

(1) فرنان بروديل، صعود الإمبراطوريات،(مجلة الاجتهاد)بيروت، العدد السادس والعشرون، والسابع والعشرون، السنة السابعة، ربيع العام1415هـ/ شتاء1995م.ص:258-259.عطا علي ريّه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى،ص:31.

(2) ابن الأثير، المصدر السابق، الجزء الثامن، ص:495.

(3) كونستبل، المرجع السابق،ص:1075.

## خلاصة القول:

إن البحث في وثائق جنيزة القاهرة وما تفرزه سجلات مدن شقوبية (*Ségovia*) وشلمنقة (*Salamanca*) وطرخونة(*Tarragona*) وجزيرة ميورقة عما في مخزونها من مراسلات بين الأسرى وأهاليهم وحكامهم وبينهم وبين السلطات الدينية والسياسية، قد تصحح هذه الوثائق والسجلات والرسائل معلوماتنا عن العلاقات بين الجاليات اليهودية وبقية عناصر المجتمع الأندلسي وبين العناصر الإسلامية وبقية عناصر المجتمعات الغربية في أسبانيا النصرانية وبروفانس وإيطاليا.وأهمية هذه العلاقات تبدو واضحة في العلاقات العامة في المجتمع من خلال وثائق العصر، كما حاولنا تقديمها في هذه المحاولة وتبقى أرضية البحث قائمة؛ قيد التحقيق والتدقيق[1].

كان اليهود ومنذ القديم كما خلص إلى ذلك جل الباحثين يشكلون فئة من الوسطاء في التجارة الدولية التي ربطت هذه المرحلة من عصر المرابطين بين سلع غرب إفريقيا وأوروبا، مما أدى بهم إلى احتكار النقاط الحساسة ومراكز الطرق التجارية البرية والموانئ البحرية.

---

[1] لومبار، المرجع السابق، ص:222.محمد الأمين بلغيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، جيجل، الجزائر، دار كتاب الغد للنشر والتوزيع، 1428هـ/2007م.ط.2.ص:71.



# العلاقات الحمادية المرابطية

# من خلال ديوان الإنشاء[*]

---

(*) الملتقى الدولي مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 1427/398هـ/2007/1007م.أيام 9-10-11 أفريل 2007م.

## المدخل العام

لقد عاش الغرب الإسلامي مرحلة صعبة على مستوى المتغيرات المحلية ويتمثل هذا الخلل على مستوى حركية المجتمع وهو ما يعرف بالظاهرة الهلالية التي تمثل نمطا اجتماعيا وسياسيا جديدًا على منطقة المغرب الإسلامي شبيه بالمتغيرات التاريخية التي عرفتها منطقة أسيا الوسطى وبلاد الصين من خلال حركية شعوب وقبائل السهوب الآسيوية التي غيرت مجرى تاريخ منطقة كاملة كانت مجالا لحضارة صينية قديمة لا تزال ظلالها ضاربة في أعماق الإنسان الصيني وبين حضارة إسلامية وعمران ساد العالم المعروف آنذاك مدة خمسة قرون كاملة وهو في هذه المرحلة التي نعالجها يعيش صحوة في المشرق قادها بدو السهوب الآسيوية السلاجقة وبدو الأعراب من بني هلال وسليم وبدو الصحراء من صنهاجة الجنوب وهم الذين أسسوا دولة المرابطين حيث فشل غيرهم من الأعراب الذين قدموا من صعيد مصر في تأسيس دولة بل خربوا العمران في إفريقية الشرقية وتمكنوا من إنهاء ازدهار الدولة الزيرية[1] وقد نجح الحماديون والمرابطون في توقيف هذا الاكتساح

---

[1] ليس هذا تجنيا على أعراب بني هلال وسليم الأثبج وزغبة بقدر ما هو ظاهرة طبيعية للمجموعات البشرية البدوية الباحثة عن الاستقرار وقد وظفت الظاهرة الهلالية توظيفا خبيثا من طرف المدرسة الكولونيالية وأتباعهم حيث وصفوا هؤلاء الأعراب بشتى النعوت ، وقد أنصفتهم دراسات الأساتذة حسن حسني عبد الوهاب مؤرخ الجيل وعثمان الكعاك، وكذلك الأستاذ محمد الحبيب الهيلة في دراسات موضوعية كما أن الظاهرة الهلالية وجدت إسقاطات سيئة في الكتابات الفرنسية مثل ما قام به "ليون غوتييه" في كتابه القرون المظلمة لإفريقيا الشمالية، وغيره أنظر حول هذا الموضوع: محمد الأمين بلغيث النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م.ص:16.

الشامل وجنبوا المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مما تحدثه القبائل البدوية والأعراب من خراب ودمار وإفساد للزرع وتقويض للممالك والعمران[1].

كما عرف الغرب الإسلامي في هذه المرحلة تطلعات أسبانية تتمثل في نجاح حركة الاسترداد المسيحي للأندلس إلى حين من خلال تقويض أركان دولة الإسلام في الأندلس إلى أن تمكن المرابطون من توحيد المغرب الأقصى ومنطقة واسعة من المغرب الأوسط وبلاد الأندلس بعد انتصارهم في معركة الزلاقة الشهيرة[2] التي أعادت للمسلمين من جديد هيبتهم الدولية والتاريخية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

لقد ترك قيام الدولة المرابطية أثرا واضحا، ذلك أن المغرب شهد ظاهرة جديدة وفدت عليه، فقد غزا عرب بني هلال إفريقية وخربوا القيروان ونالوا من الحضارة وقوضوا ملك بني زيري ثم طرقوا باب المغرب الأوسط، وهددوا الدولة الحمادية وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، فيمثلوا فيه نفس الدور، ويعيثوا فيه فسادا كما عاثوا في إفريقية من قبل لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الأوسط، ووضعها حامية قوية في تلمسان[3] استطاعت أن تجنب المغرب الأقصى

---

[1] حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين( صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى الطبعة الأولى، دار الفكر العربي القاهرة.ص:327.

[2] عن الزلاقة في عهد المرابطين وأثرها في رد العدوان الكنسي الصليبي في الغرب الإسلامي أنظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب الجزء الرابع(البيان المرابطي) تحقيق ومراجعة الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة بيروت لبنان، 1980م.ص:130. وهو نص من الروض المعطار انتقاء الدكتور إحسان عباس محقق الكتاب.أنظر أيضا محمد الأمين بلغيث، الرُّبطُ بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين (رسالة ماجستير معهد التاريخ جامعة الجزائر غير منشورة (1987م) (أنظر دور الرباط العسكري).

[3] مصطفى أبوضياف أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين(524هـ-876هـ/1130م-1472م)، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 1983م ص:63-64.

مفاسد بني هلال وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط لأنهم كانوا يعلمون أنه يتحكم في الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى.

ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الإقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد اللمتوني الشهير مزدلي فاتح بلنسية ليرعى شؤونه ويحرس مسالكه كما ذهب إلى هذا العلامة عبد الرحمن بن خلدون الخبير بشؤون الأعراب في المغرب والأندلس.

لقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الأوسط وعملهم على مدافعة أعراب بني هلال إلى اصطدامهم ببني حماد أصحاب القلعة بعد أن كانوا قد آزروهم حين فتحوا المغرب الأقصى لأن بني حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين في المغرب الأوسط نظرة الارتياح والرضا بل ظلوا يترقبون فرصة مواتية حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد، فاستعانوا بعرب بني هلال وأغاروا على مما تعتبره دولة المرابطين أقليمها بالمغرب الأوسط لانتزاعه منهم مما حمل يوسف بن تاشفين على مغادرة الأندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم ويبدو أن المرابطين قد أقروا السكينة في ربوع المغرب الأوسط وحالوا بين بني حماد وحلفائهم من أعراب بني هلال وبين ما يريدون، بل جاست قواتهم فيه وهددت مدينة أشير ويذهب بعض المؤرخين إلى الاستخلاص أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط، وعملهم على تحصينه ولإقرار السكينة في ربوعه لم يكن يقصد به مجرد مناهضة بني حماد أصحاب القلعة والكيد لهم، بل لرد الأعرب عن المغرب الأقصى وتجنيب البلاد ما أصاب إفريقية من قبل، بدليل أن يوسف بن تاشفين قد سالم بني حماد، بعد أن اطمأن إلى المغرب الأوسط قد نجا من الوقوع في قبضة الأعراب، فنجت حضارته وسلم تراثه.

إن علاقة المرابطين بأعراب الهلاليين وغيرهم لم تكن كلها صدام بل نجد أن الفرسان العرب قد أوجدوا لهم علاقات تعاون مع الدولة المرابطية القوية التي شاركت طيلة عشرين سنة في صد المد القشتالي عن الأندلس، حيث اشترك هؤلاء الأعراب يوسف بن تاشفين جوازه الثالث إلى الأندلس برسم الجهاد ورد نصارى قشتالى وهذا في المعركة الشهيرة كنسويقرا(***Consuegra***) عام 490هـ/ 1097م وفي عهد الأمير علي بن يوسف يبدو أن طائفة من عرب إفريقية جازوا إلى الأندلس برسم الجهاد ضد المسيحيين حيث يذكر المؤرخون بعض الفرسان العرب في موقعة أقليش (***UCLES***) سنة 501هـ/ 1108م.

تتحدث المصادر أنه لما شرع يحيى بن عمر في بناء مراكش[1] ثم غادرها سريعًا بعد أن جاءته أخبار الفتنة التي وقعت بين جدالة ولمتونة واستخلف يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب.فتخلى له عن زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية الهوارية، التي مدحتها الكتب لحنكتها السياسية وذكائها، وهي إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة،ودورها واضح في

---

[1] انظر: *E.lévi Provençal, la Fondation de Marrakech, (462-1070), mélanges: d'histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman T.II Imprimerie officielle Alger 1957 P:118.Gaston deverdun, Marrakech des Origines, à 1912, édition Technique Nord Africaine Rabat 1959.P: 51-70.*

ليفي بروفنسال، خواطر عن دولة المرابطين في مطلع القرن الثاني عشر(الإسلام في المغرب والأندلس)،ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، الفجالة، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،(د.ت).ص:244.أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني (إمبراطورية مالي 1230-1430م)، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، منشورات المجمع الثقافي، 1420هـ/ 1999م.ص:156.

إرشاد زعيمها وكان يوسف بن تاشفين، يردد دائمًا أمام وجهاء الدولة أن المغرب قد فتح بمالها وحسن تدبيرها[1].

أعَدَّ المرابطون العدة لغزو مدينة فاس التي فشلوا في اقتحامها مرتين، ونجحوا في الاستيلاء عليها سنة467هـ/ 1075م، وفتحوا تلمسان سنة 472هـ/ 1080م، وإلى غاية 474هـ/ 1082م، دخلت طنجة، مكناس، وهران، تنس، والجزائر تحت سلطانهم،ولم يقدم يوسف بن تاشفين ،على اقتحام الدولة الحمادية نظرا لغرضه، إغاثة أمراء الأندلس[2].حيث تحمل المرابطون مسؤولية صيانة الإسلام بالأندلس، ضد حركة الاسترداد التي أخذت بعدًا دوليًا وتجللت بلهيب النزعة الصليبية التي أصابت أوروبا

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله، المرأة المراكشية في الحقل الفكري (صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد) المجلد السادس، العددان الأول والثاني،1378هـ/1958م.ص:268. إبراهيم القادري بوتشيش،المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع.الذهنيات.الأولياء)، بيروت، دار الطليعة. 1993م.ص: 49.محمد الأمين بلغيث، مشاركة المرأة الأندلسية في الحياة الأدبية والعلمية في عهد المرابطين (479هـ/1086م/1145م)

(المجلة الجزائرية للمخطوطات)مجلة علمية محكمة يصدرها مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا/جامعة وهران، الجزائر العدد الثاني والثالث، 2004–2005م.ص:207.

[2] لقد كانت الدولة في بلاد الغرب كما يقول ابن الأثير لزناتة(قبل المرابطين) الذين ثاروا في أيام الفتن، وهي دولة ردِّية مذمومة السيرة لا سياسة ولا دين"ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص:330.وعن الفتوحات المرابطية لهذه المدن خاصة المنطقة الشرقية من تازا إلى مدن المغرب الأوسط، انظر:رابح عجنق، السياسة الداخلية لدولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين،ص:43 وما بعدها.انظر تطلع الداعية عبد الله بن ياسين إلى فتح الشمال بدلا من التوجه إلى السودان الغربي وأدغال الصحراء، كما ناقشها أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، ص:146.ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في أسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف 1405هـ/1985م.ط.2.ص:27.

*Mohamed Meouak,Identité nationale et hégémonie territoriales (les Umayyades et les Fatimides au Maghreb)(Orientalia Sucana),Vol.XLVII(1998) department of Asian and African Languages, Uppsala University, Uppsala,Sweden,1998. P:109.*

فارس بوّز، دراسة في فكر المهدي محمد بن تومرت الزعيم الروحي والسياسي لحركة الموحدين، بيروت،دار حازم للطباعة والنشر والتوزيع،2001م.ص:35.

المسيحية[1].رغم أن أبناء العم من الحماديين قد تآمروا على يوسف بن تاشفين على إثر رحيله إلى الأندلس وجوازه إليها برسم الجهاد، حيث وقعت أحداث الزلاقة (12 رجب 479هـ/ الجمعة 23 أكتوبر1086م)[2].فحرضوا الأعراب لغزو ممتلكات المرابطين في المغرب الأوسط.

لقد تحالف الحماديون مع أعراب المنطقة من أجل مهاجمة الحدود الشرقية للدولة المرابطية نكاية في حلفاء المرابطين من بني زيري، وهم أبناء عمومة لبني حماد بالقلعة وبجاية، وكان رَدُّ المرابطين سلميًّا وتغاضوا عن التهجم على أبناء العمومة، رغم أنهم بدأوا بالعداوة، لأن معركتهم المصيرية

---

[1] فيسنت كانتارينو،حرب الاستعادة الأسبانية، هل هي حرب كولونية مقدسة ضد الإسلام؟،ترجمة د.أبو بكر باقادر، (مجلة الاجتهاد)العدد التاسع والعشرون، السنة السابعة بيروت خريف 1416هـ/1995م. ص: 59 وما بعدها.

*Boulal Leila épouse Binebine,Islam et pouvoir sous le règne des Almoravides,mémoire pour le diplôme d'études approfondies histoire des institutions, des idées et des faits sociaux, Paris , université de droit, d'économie et de sciences sociales de Paris .1984.PP:25 et suivantes.*

مصطفى الزباخ، فنون النثر الفني بالأندلس في ظل المرابطين، الدار البيضاء، بيروت الدار العالمية للكتاب، الدار العالمية للطباعة والنشر، 1987م.ص:30-31.عز الدين عمر موسى، الأسطول المغربي على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين (دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي)، بيروت، دار الشروق، 1403هـ/1983م. ص:48.فارس بوز، دراسة في فكر المهدي محمد بن تومرت الزعيم الروحي والسياسي لحركة الموحدين،ص:35.

[2] عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد الخامس(عهد المرابطين) المغرب الأقصى 1987م.ص:191. سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، بيروت، دار النهضة العربية، 1405هـ/1985م.ص:156.وما بعدها. انظر حدود الدولة المرابطية في أقصى توسعها(الخريطة رقم واحد). بوتشيش، المغرب والأندلس في عهد المرابطين ص:11.إبراهيم القادري بوتشيش، قراءة في التجربة الوحدوية المرابطية للغرب الإسلامي(تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة) بيروت، دار الطليعة، 1998م.ص:82.

مع نصارى الشمال الأسباني ومع نورماند صقلية الذين يتحرشون ببني زيري.ولم يكن يوسف بن تاشفين على قدرته ومكانته وحنكته يقدم على عمل إلا إذا شاور العلماء، فلما قدم عليه وفد وسفارة أهل الأندلس التي شملت سفارة بطليوس برئاسة قاضي المدينة أبي إسحاق، وسفارة عن غرناطة برئاسة قاضيها أبي جعفر القلعي، وسفارة عن إشبيلية وقرطبة برئاسة عبد الله بن أدهم، وقد أشرف على البعثات الثلاث أو السفارة الأندلسية الوزير أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر المشهور، وردت لتستنجد بيوسف بن تاشفين، لكن يوسف هذا بما وراءه من بأس وقوة، ورجال وعتاد كان لا يستطيع أن يتحرك قبل أن يتوجه إلى شيخ من شيوخ جامع القرويين وهي السلطة الدينية والعلمية في ذلك العصر، فاتصل بالشيخ الفقيه يوسف بن الملجوم(تـ492هـ/ 1099م) للنظر فيما هو قادم عليه من جهاد بالعدوة الأندلسية[1].

كانت العائلات العالمة في ذلك العصر؛ من بني العسفي؛ بني زهر؛ بني الحاج؛ بني رشد، بني أدهم، بني عبد الصمد، بني المناصف،بني عتاب، بني مخلد،بني مغيث، وعائلة الصدفي،وبني حمدين،بقرطبة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس كلها عائلات وجيهة ذات مكانة مرموقة، تبوأت المراكز الكبرى في الجهاز المرابطي وشكلت النخبة الفقهية والقضائية والثقافية في هذا العصر.ومن هذه العائلات الوجيهة من كان قصدها العلم والشرف كما في عائلة ابن رشد، ومنها من كانت لها تطلعات سياسية كما هو حاصل مع

---

[1] محمد عابد الجابري، ابن رشد (سيرة وفكر) بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ،أكتوبر 1998م.ص:27. عمر بن حمادي، الفقهاء في عصر المرابطين، إشراف د.محمد الطالبي، شهادة التعمق في البحث(تاريخ وسيط) جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1987م. ص:281.

عائلة ابن حمدين[1].وقد أبرزت الأحداث أن الأمراء الأوائل كانوا على درجة كبيرة من تقدير السلطة الفقهية والعلمية، ويكفي أن نعرف المكانة التي أولاها يحيى بن إبراهيم لابن ياسين وأبي عمران هذا الأخير الذي يعتبر أول من فكر في إنشاء كيان سياسي سُنّي بالمنطقة وهو نفس طموح الطرطوشي المالكي أيضًا المقيم بثغر الإسكندرية[2].

لقد مرت دولة المرابطين بثلاث مراحل: النشأة والسيطرة على الصحراء ويسمى الدور الصحراوي،(مرحلة النشأة والدعوة والتكوين المذهبي)، ودور العظمة والتوسع نحو الشمال، وهو الدور المغربي(مرحلة الاكتساح وتوحيد المغرب)، الوقوف في وجه الحملات الصليبية بإسبانيا وهو الدور الأندلسي(ضم الأندلس)[3].ولهذا فقد كانت الدولة المرابطية قد عرفت بعد

---

[1] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ، الجزء الثامن**، راجعه وصححه، محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ/1987م.ص:328. زمامة عبد القادر، **أبو عمران الفاسي الغفجومي أول من فكر في تأسيس دولة المرابطين**، (مجلة البينة) العدد 3. المغرب الأقصى،1962م.ص ص:65-72.وعن علاقة أبي عمران بوجاج بن زللو راجع، عمر بن حمادي، **الفقهاء في عصر المرابطين**، ص ص:67-69.عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**(2).ص:112-113.

*V.Lagardère,Al-Turtuchi, Unificateur du Malikisme aux XIe et XIII siècles (R.E.I) Vol.XLVII.2 Paris 1970 PP:173-190. V.Lagardère, L'unificateur du Malikisme oriental et occidental à Alexandrie Abu Baker At-Turtusi(Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée (R.OM.M)31.1981-1.PP:47-61*

[2] عبد الهادي التازي، **جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس**، المجلد الأول، بيروت، دار الكتاب اللبناني،1972م.ص:131. عمر بن حمادي، **الفقهاء في عصر المرابطين**، ص:277-356.

Ferhat(Halima), Sabta des Origines aux XIV siècles,Préface de Mohammed Allal Sinaceur; Publié par le Ministère des Affaires Culturelles, Maroc 1993. P:129

[3] حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1957م.ص:143، بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص:7 وما بعدها. أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، ص:145 وما بعدها.كانتارينو،حرب الاستعادة الأسبانية، هل هي حرب كولونية مقدسة ضد الإسلام؟ص:69.العجلان، عبد الرحمن بن سليمان، الأندلس تحت حكم المرابطين، رسالة ماجستير مخطوطة، الرياض، كلية العلوم الاجتماعية، عام 1402هـ/ص:108.

ذروة المجد في الزلاقة، ثم عرفت مرحلة التراجع والأفول بعد القلاقل والفتن التي عرفتها منذ ظهور حركة المهدي بن تومرت[1].

تربع يوسف بن تاشفين بعد أزيد من عشرين سنة من الجهاد(1056-1083) على إمبراطورية شملت المغرب الأقصى ونصف المغرب الأوسط وإفريقيا الغربية، وكونت على إثرها قبائل الملثمين حضارة مزدهرة في دولة واسعة يسودها الأمن والعدل، وعلى عهد هذه الدولة عرف المغرب الوحدة لأول مرة في التاريخ بعد أن كانت تتقاسمه طوائف وشيع[2] .بينما سادت - في إفريقية( المغرب الأدنى)- فوضى سياسية وانهيار في

---

[1] انظر شيعة المهدي بن تومرت المتأخرين وما يقولون عنه في مرحلة متأخرة من خلال فرقة أو طائفة حزناية من أخماس تازا، لأنهم من شيعة المهدي بن تومرت:انظر:الونشريسي، **المعيار**، الجزء الثاني.ص:453 . عبد الواحد المراكشي، **وثائق المرابطين والموحدين**،تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1997م.ص:171. عبد اللطيف عبادة،**ابن تومرت(علاقته بالغزالي وموقف ابن تيمية منه**(مجلة كلية الدعوة الإسلامية) العدد السادس،ليبيا، سنة 1999م.ص:125 وما بعدها. محمد صالح الجون، **أثر الأندلسيين في الأدب المغربي على عهد الموحدين**، رسالة دكتوراه، إشراف،د.محمد الربداوي، جامعة الجزائر، العام الجامعي، 1407هـ/1987م.ص:73.مصطفى بنسباع، **السلطة السياسية العليا بين المرابطين والموحدين**(مجلة البحث العلمي)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد:41.الرباط،1993م.ص:41-55.

*Mohammed Abdelouaheb El-Asri, introduction à la lecture d'IbnTumat,Doctorat de3ème cycle sous la direction de Mr le Professeur Pierre Thillet, Université de Paris1.Sorbonne ,UFR de philosophie Juin 1983.P:39 et suivantes*

[2] انظر:ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**،(البيان المرابطي) **الجزء الرابع** تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت،1980م.ص:10.عبد الرحمن علي الحجي، **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**(92-897هـ/711-1492م)، دمشق،دار القلم، 1418هـ/1997م.ط.5.ص:323.وما بعدها.

*Le Tourneau, l'occident Musulman du VII Siècle à la fin du XV siècle, Annales de l'Institut d'études Orientales, faculté des Lettres de l'Université d'Alger T.XVI, Edition le Typolitho et Jules Carbonnel Alger 1958 PP 161-162. Cronica Anonimo de los reyes de taifas, Introduccion y notas por Felipe Maillo Salgado, Madrid, Akal Universitaria,1991.P:8.*

(أشير إلى هذا الكتاب:مجهول، **تاريخ ملوك الطوائف**).

الاقتصاد على إثر الغزوات الهلالية.وكان أهل الأندلس يراقبون أحداث الدولة الفتية في بلاد العدوة وطار اسم ابن تاشفين في الآفاق بعد أن تسلم مقاليد الحكم من ابن عمه يحيي بن عمر الذي استشهد في بلاد السودان.

كانت أحداث الأندلس تجري بسرعة، لتستدعي أهل المغرب للحلول دون الاستيلاء القشتالي على باقي أراضي المسلمين، وهذا في عملية الاسترداد المسيحي الذي عرفته الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي.ويبدأ الدور الأندلسي لدولة المرابطين حينما تجتاز قواتهم البحر للجهاد.

**ديوان الإنشاء المرابطي**

لقد كان ديوان الإنشاء المرابطي غنيًا بالرسائل إلا أن علاقة الدولة المرابطية بالحماديين،تبدو غير واضحة المعالم، يقول عبد الهادي التازي في موسوعة تاريخ المغرب الدبلوماسي لم أعثر في وثائقي عن رسائل على مستوى الكتب والمراسلات التي تمت بين المرابطين ومملكة بني زيري فقد بدأت العلاقات مع أشقاء الحماديين بتونس منذ مرحلة مبكرة من قيام دولة المرابطين، حيث أحيط الزيريون علما بفتح المرابطين لأغمات عام 451 هـ/ 1059م[1] وهي مرحلة مبكرة قبل الفتح المرابطي للمغرب الأقصى والمغرب الأوسط الغربي، والدلالة التي نستشفها من عدم ذكر السفراء

---

[1] انظر الوثيقة الخطية وتحليلها. التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد الخامس،.ص:191.حازم عبد الله خضر، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، سلسلة الدراسات رقم:244.بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، 1980م.ص:218. العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الثالث، تحقيق آدرتاش آذرنوش تنقيح محمد المرزوقي وآخرون الدار التونسية للنشر، تونس،1972م.ص:385.انظر العلاقات الحمادية البابوية:
*Le compte de maslaterie,Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations de l'Afrique septentrionale au moyen - âge, Paris 1866.P:58.*

المرابطين إلى البلاط الحمادي بالقلعة أو بجاية الناصرية مرده كما ذهب إلى ذلك أن المرابطين في رسالتهم اليتيمة[1] إلى الحماديين تنم على دلالة لها أكثر من معنى، حيث إنَّ المصادر النصرانية تذكر الأمير الناصر من دولة بني حماد الذي كان يتحلى بكثير من الود إزاء الجماعات المسيحية التي تقيم بالإقليم الذي كان يحكمه، وكان لهذه الجماعات من حين لآخر علاقات منتظمة مع المركز البابوي في عهد غريغوار السابع[2].

ونحن قبل هذا أمام وثائق معاصرة في منتهى الأهمية وغاية الخطورة، يتعلق الأمر أولا بالرسالة التي يحتفظ بها ابن بسام الشنتريني في ذخيرته وهي من إنشاء أبي الحسن بن محمد بن الجد ونسبها عبد الهادي التازي إلى ابن القصيرة (أبو بكر محمد بن سليمان) سفير المرابطين وكاتبهم إلى الملوك والأمراء والرسالة وهي موجهة من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين جوابا عن خطاب سابق من صاحب قلعة بني حماد لم نقف على نصه.

لقد كانت الرسالة المرابطية صريحة وقاسية، لأنها لم تتردد في اتهام المرسل إليه بأنه:يجتني ويثرب على من لم يستوجب التثريب... وأن وراء كل حجة كان يدلي بها صاحب القلعة، يوجد عند أمير المسلمين ما يوضحها لو

---

[1] ينسب إلى المرابطين رسالة ثانية أوردها ابن خاقان، وهي تشتمل على جميع معاني الرسالة التي أوردها ابن بسام هل هي تلخيص لنفس الرسالة من طرف ابن خاقان، أم أنها رسالة ثانية وأخطأ أحدهم فقال إنها مرسلة من علي بن يوسف بن تاشفين ووالده كان حيًّا بإجماع المصادر إلى عام 500هـ/1106م.موسى هيصام، الجيش في العهد الحمادي رسالة ماجستير، إشراف، موسى لقبال، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ،2000-2001م.ص:160.

[2] التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الخامس(عهد المرابطين)ص:192.عصمت عبد اللطيف دندش، عودة لعودة يوسف بن تاشفين(أضواء جديدة على المرابطين) بيروت، دار الغرب الإسلامي،1991م ص:68-80.

**لا استنكاف الجدال واجتناب تردد القيل والقال لقصصنا فصول كتابك أولا فأولا؟**

وبعد أن تذكر رسالة أمير المسلمين بما كان قد شب بين صاحب قلعة بني حماد وبين ابن عمه أبي عبد الله محمد بن يوسف،رحمه الله، تتحدث عن انشغال يوسف بن تاشفين بجهاد المشركين وتُعيِّرَهُ بأنه: "**يستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم فيعطيهم ما في خزائنه جزافا وينفق عليهم ما كنزه أوائلُهُ إسراف...**" ثم يؤنبه بأنه "**يتداوى من أعدائه بسم ويستريح إلى غم...و أنه يخلي للأعداء الطريق ( يعني النورمانديين) لأذية المسلمين( أي الزيريين)...؟؟**" ولو أن صاحب رومة المشتمل معه( أي مع صاحب صقلية) بعباءة الكفر والشرك...تقول الرسالة يكون مكانك من جوارنا ما أتى من نصرة فوق ما أتيت؟؟ وكل ما سفك من دم وانتهك من محرم واستهلك من ذمم(بالأندلس) فإليك منسوب وعليك محسوب وفي صحيفتك مكتوب، وموعد الجزاء غدًا وإنه لقريب فانظر ما أنجح أثرك، وأربح متجرك، وأصلح موردك ومصدرك[1]. ومهما كانت العلاقات السياسية بين الدولة الحمادية التي نهجت نهجا خاصا بين أشقائها وأبناء العم المرابطين والزيريين فإن هذا الأمر لم ينس لهؤلاء علاقات المرابطين الخاصة بهم، التي تتمثل في الإبقاء على صلات القربى بينهم.

لقد حفظ ملوك القلعة للمرابطين سلوكهم المهادن حينما لم يتدخلوا في شؤون المغرب الأوسط الشرقي، وهذه السياسة الودية هي التي جعلت

---

[1] ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني، المجلد الأول،**، تحقيق إحسان عباس تونس ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1979م.ص ص:257-260.

صنهاجة القلعة تمد المرابطين بمساعدة عندما طاردهم عبد المؤمن بن علي في نواحي وهران وتلمسان، ولم تأت هذه المساعدة بنتيجة إيجابية[1].

لقد استطاع الكتاب الأندلسيون أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم وأن يتفننوا فيها، حتى لتبدوا بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور، لا ينقصه غير الوزن والقافية ليكون شعرًا[2].ومهما كان من أمر فإن الكُتَّاب الأندلسيين كانوا يراعون ظروف إنشاء الرسائل، ومناسبة الإطناب والإيجاز فيها لمقتضى الحال[3].

---

[1] إبراهيم حركات، **النظام السياسي والحربي في عهد المرابطي**، مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء،(د.ت) ص:139

[2] القيسي فايز عبد النبي فلاح، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، عمان، الأردن، دار البشير للنشر والتوزيع، 1409هـ/1989م.ص:447.

[3] نفسه، ص:338.

## الخاتمة:

لا أحسب أن موضوع العلاقات الحمادية المرابطية قد استوفى حقه، وأعتقد أن كتب الفقه ونوازل العصر قادرة على التعريف بالجديد، خاصة حالما نوسع البحث إلى انتقال العلماء بين حواضر المغرب الكبير في هذا العصر، وهو عين ما مثله أحسن تمثيل صاحب المنفرجة ابن النحوي الذي اختار فاس للإقامة فيها في عصر ودولة متهمة بالتضييق على الغزالية ورواد علم أصول الفقه والفلسفة.

النصوص التي تؤرخ إلى العلاقات الحمادية المرابطية نادرة وشحيحة لا تكاد تفي الغرض، وهي على قلتها تبرز حرص صنهاجة الشمال(دولة بني حماد، وصنهاجة الجنوب(دولة المرابطين) تجنب ما يؤدي إلى الصراع والفتن التي تذهب ريحهم وهم يواجهون الأخطار المشتركة.



# الفلاحة بالأندلس في عصر المرابطين(*)

(*) هذه دراسة كنّا قد عالجنا فيها علوم الفلاحة بالأندلس في عصر المرابطين رأينا أن نعممها للفائدة ورجاء الملاحظات لتقييم هذا لعمل.الفصل الخامس من رسالتنا للدكتوراه الموسومة بـــ "الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين".

## المدخل العام

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات كما قال ابن خلدون[1].ولقد حظي مصطلح فلاحة في الكتب التراثية بمكانة كبيرة، إلا أنها على مستوى المصطلح كانت تعوض بألفاظ "الأكرة"، "أهل القرى"، و"أهل الأرياف" كما أن لفظة "فلاح" ولفظة "فلاحون" لم تظهر إلا في القرن السابع الهجري، بعد سبعة قرون على تأسيس الثقافة الإسلامية على مستوى الكتاب والسنة، وتبلور المصادر الفقهية القائمة على اجتهادات الفقهاء من خلال النص الديني، والفلاحة عند ابن خلدون:"من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو، ولذلك لا تجد ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب، ولا من المترفين، ويختص منتحله بالمذلة[2].

تحتل دواوين الفلاحة بالغرب الإسلامي حيزًا كبيراً في القرنين الخامس والسادس الهجريين،عصر نهضة "المدرسة الزراعية الأندلسية" وهي تتمثل على مستوى التأليف والفكر الفلاحي في الموارد التالية:

1. مجموع الفلاحة لابن وافد.
2. كتاب الفلاحة لمحمد بن إبراهيم بن بصال.
3. كتاب المقنع في الفلاحة لأبي عمرو أحمد بن محمد بن حجاج الإشبيلي.

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص:492.

(2) سلام، هامشية المسألة الفلاحية(قراءة سوسيولوجية نقدية)، مجلة أمل العددان، 22-23، ص:283-284.بوتشيش، العلاقات الانتاجية بين المزارعين وأرباب الأراضي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري(ق.12م)(إضاءات)ص:77-83.الدّفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات،ص:242-252.

4. كتاب الفلاحة لأبي الخير الإشبيلي[1].

5. زهرة البستان ونزهة الأذهان للطغنري الذي أهداه للأمير أبي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين.

6. كتاب الفلاحة لأبي زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي من رجال القرن السادس الهجري[2].

وهذا القدر الكبير من الأعمال الفلاحية في عصري الطوائف والمرابطين يجعل مؤرخي العلوم أمام ظاهرة فريدة من نوعها، حيث تقول الباحثة لوسي بولنز(***Lucie Bolens***):إنَّ هذه المرحلة ؛عبارة عن ثورة خضراء كبيرة، ذات تقنيات زراعية عالية. ويشاركها نفس الرأي جورج سارطون[3] في المدخل إلى تاريخ العلوم، وقد نوه بنفسه حين صدور كتاب الفلاحة لابن بصال.وقد ساعد مناخ الأندلس وأرضها وتربتها المتعددة على تجارب ابن بصال وابن حجاج وابن العوام، كما أن معدل تساقط الأمطار في

---

[1] ابن خير الأندلسي، كتاب في الفلاحة، نشره الفقيه التهامي الناصري الجعفري، فاس، المطبعة الجديدة 1358هـ/1957م. سانشيز، الزراعة في أسبانيا المسلمة (الحضارة العربية الإسلامية)، الجزء الثاني، ص:1368.

[2] *Fadhel Hamada, Unos del desarrello economico en la epoca de los reyes de taifas Actas del IV coloquio Hispano-Tunecino-Palma de Mallorca, 1979) Instituto Hispano-Arabé de cultura, Madrid, 1983. P: 156. L, Bolens, Les méthodes Culturales au moyen-âge d'après les traités d'agronomies, tradition et technique, Genève; 1974. P: 21.*

ابن العوام، كتاب الفلاحة، تقديم محمد الفايز، باريس مطبوعات الجنوب(*Actes Sud*)، ديسمبر 2000م.ص:22.

[3] جورج سارطون، ابن بصال=كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي ماريا مياس بيكروسا ومحمد عزيمان(231 صفة بالأسبانية و182 صفحة بالعربية)تطوان، المغرب، معهد مولاي الحسن، 1955م.ترجمة مجلة تطوان لمقال الأستاذ جورج سارطون الأستاذ بجامعة هارفارد وهو تعليق صدر بمجلة"أسيس"(*ISIS*) مجلد 47 الصادر في مارس 1956م.ص: 74-77.(مجلة تطوان)سنة 1957م.ص ص:195-198.

هذه الحقبة مدار الدراسة هو بمعدل 400 و600 ملم[3]، مما يسمح بإقامة المشاريع الزراعية،مع تقنيات الري المتطورة.ومن آثار العرب المسلمين في الأندلس هو هندسة الحدائق والرياض الخاصة والعامة، مما يدل على ذوق فني سليم في تنسيق الحدائق جمعت بين الرقة والبساطة.لقد برع الأندلسيون براعة عجيبة في طرق الري فقال سيديو...وجملة القول: إنَّ العرب في الأندلس أبدعوا في هندسة الري، ويدل عليه ما فعلوه في سهل وشقة(هوسطا؟)(***Huesca***) التي يقسمها نهر(طونه) إلى قسمين إبداعًا يستحق معه أن يلقب ببستان الأندلس)[1].

بلغت الحضارة في الأندلس درجة مزدهرة، وكان التشجيع من طرف الملوك والأمراء دافعا للبحث والتأليف وميدان الفلاحة هو الآخر له علماء ومفكرين أصحاب تجارب ميدانية في الزراعة والبيطرة.ولقد كان الخلق والإبداع المنهجي الذي انطلق منه المسلمون في هذا العصر بمباشرة استثمار محيطهم بالاستكشاف والتعمير، واتحدت فيه غاية الدنيا وهي الزرع والفلح والتعمير، وهو ما يؤدي إلى المنفعة المادية، وغاية الآخرة، وهي تحصيل الثواب بالتعمير في الأرض، حيث كان علماء الفلاحة بالأندلس في قمة تطويرهم للعلوم الفلاحية والبيطرة، حيث جابوا أقطار الدنيا للبحث عن أنواع النباتات الطبية والأزهار الجيدة وقد تفنَّنُوا في رسم وبناء الحدائق التي اشتهر بها أهل الأندلس الذين أقاموا القرى الفلاحية والمنيات والجنات والبساتين أما البستنة والحدائق العامة بالمدن والقصور فهي آية من آيات تطور الفلاحة والعلوم الخاصة بالزهور، وأنواع الأمراض التي تتعرض لها

---

[1] سند السيد باقر الفحام، الهندسة الزراعية عند العرب(مجلة المورد العدد الخاص(العلوم عند العرب) المجلد السادس، العدد الرابع،دار الحرية للطباعة، بغداد،شتاء 1977م.1398هـ/ص:226.كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين،ص:115.

النباتات.ومن الأشجار والنباتات الطبية الواردة في كتب الطب الأندلسية شجرة يقال له الميس، وشجرة تسمى اللبان وثمرها عطر الرائحة ويحصل منها على صمغ يسمى في لغة أهل الأندلس شانسية، وهذا النوع من الأشجار ينمو في طرطوشة، وإلى جانب هذه الأشجار كانت تنبت في الغابات بعض الأعشاب التي ينتفع بها الأندلسيون، مثل نبات القوللية، الذي ينمو في قرمونة وإشبيلية، وأنه إذا دق وغسل به الثياب بيضها لأن له رغوة الصابون[1].

وبفضل السياسة التي انتهجها أمراء قرطبة الأمويون، لاسيما عبد الرحمن الداخل؛ أُدخِلَت إلى الأندلس نُظُمُ الفلاحة وأساليبُ الري الشامية، كما جلبت نباتات وأشجار مثمرة من بلاد الشام.إن النواعير في الأندلس بنوعيها ما يعمل فيها بفعل قوة الماء، وما تستعمل الدواب في تحريكه- هي من أصل شامي.ومن الأندلس انتقل استعمال هذه الأنماط من النواعير إلى المغرب، كما اقتبسها النصارى في شمال أسبانيا، عن طريق المستعربين، وبعد توسعهم جنوبًا كما ذهب إلى هذا توماس غليك(*Thomas.F. Glick*)[2].

يرد غليك على مدرسة آسين بلاثيوس المتعصبة لاستمرار وجود النظم الأسبانية الرومانية، وكل الذين يقولون: إنَّ العرب لم يفعلوا شيئًا في ميدان تقنيات الري، ولهذا فإن النتائج التي توصل إليها بوتزر يجب أن يحسب لها حسابها، وعلى ذلك فإنني أتحدَّى الفكرة القائلة بأن العرب قد اكتسبوا(وربما

---

[1] كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص:172.

[2] توماس غليك أستاذ التاريخ والجغرافيا بجامعة بوسطن، اهتم بالكتابة عن انتشار الثقافة الإسلامية في أسبانيا المسيحية. د.أمين وتوفيق الطيبي، كتب الفلاحة الأندلسية (أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحة) (مجلة الدعوة الإسلامية)العدد السادس، ليبيا، 1989م.ص:354بالنيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص:475.
*Glick, Thomas.F; Islamic and Christian Spain in Early Middle Ages, Princeton U.P.1979; PP:55 -236-237*

البربر) شهرة غير مستحقة في إطار تجديد قاعدة الزراعة في شبه جزيرة الأندلس، فمثل هذا الرأي ينطوي على مخاطرة إحياء الإشاعة القديمة بأن الحضارة العربية، بسبب عبقريتها في التأليف بين العناصر الثقافية المتفرقة، كانت بطريقة أو بأخرى تفتقر إلى الأصالة؛ وكأن التأليف بين العناصر ليس إنجازًا ثقافيًا خلاَّقًا!.إن رأينا هو العكس تمامًا فالتشكيل بين الزراعة الهندية، والتقنيات الهيدرولية الرومانية والفارسية، والنظام القانوني لتوزيع المياه الذي يتضمن عناصر من النماذج البدوية العربية والبربرية والتشريع الإسلامي، والأعراف الرومانية السائدة في الريف(مزيج معقد يحتاج إلى التفكيك) شكل صورة مختلفة تمامًا عن أنظمة الري الرومانية المتقدمة سواء في مجال استخدام المياه أو في أسس توزيعها، هذا فضلا عن نوع الاقتصاد الذي يوحِّدُ ذلك كله[1].كما أُدخلت إلى الأندلس عن طريق الجند الشامي تربية دودة القز وصناعة نسج الحرير، وبخاصة في إقليم جيان(*Jean*) شرقي قرطبة حيث أنزل جند قِنَّسرين[2].

أدخل الفاتحون إلى الأندلس محاصيل جديدة معظمها تعتمد على الري، ومع المحاصيل الجديدة أُدخلت إلى الأندلس وسائل جديدة في الزراعة، فبعد أن كانت الأرض تظل بورًا في فصل الصيف ولا تنتج إلا محصولاً شتويا، أصبحت تُستغل-باستخدام الرَّي- على مدار العام، كما أدخل الفاتحون

---

[1] توماس ف.غليك، **التكنولوجيا الهيدرولية في الأندلس**، ترجمة صلاح جرار (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)الجزء الثاني، ص:1350.راجع عن التقنيات الرومانية المستخدمة بالأندلس في عصر المرابطين نماذج من شرق بشينة(*Péchina*)، وضاحية الحامة.-Lagardère, Campagnes et paysans d'Al-*Andalus, P:259.*

عمر رضا كحالة، **العلوم العملية في العصور الإسلامية**، دمشق، المطبعة التعاونية،1392هـ/1972م.ص:181.

[2] *Lombard, L'Islam dans sa première grandeur,P: 94.*

نظام الدورات الزراعية، كزراعة الذرة صيفًا، بعد زراعة القمح شتاءً، وتطلب ذلك دراسة أنواع التربة واستخدام الأسمدة، وفيها صنف الأندلسيون كتبًا خاصة في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي؛ تناولت أنواعها وخصائصها، كما قام الفاتحون بإصلاح نظم الري القديمة في الأندلس، وتحسينها وتوسيع شبكتها في كثير من الأحيان، مما أدَّى إلى توفير مزيد من الماء لسقي مساحات أوسع من الأراضي، فازدادت رقعة الأرض السقوية وغلاتها، وازدادت بالتالي مداخيل المزارعين وأصبحت أكثر نباتًا وأقل خضوعًا لرحمة التقلبات المناخية،وقد أثبتت الوثائق أن مؤسسات توزيع المياه تكشف عن الدلائل الهائلة لأنظمة الري الإسلامي التي استمرت إبان الحقبة المسيحية، فكلما صادف المستردون أنظمة ري فعالة كان يؤمر بأن يستمر تشغيلها تمامًا كما كانت تشغل في أيام العرب، وثمة نوعان من الوثائق أثبتا أنهما من أغنى الوثائق في تقديم معلومات حول النظم الإسلامية السابقة، وهي كتب ديوان الخطط، وهي سجلات خاصة بتوزيع حصص الجند الفاتح للأرض الأندلسية المفتوحة وهل هي عنوية أو صلحية، والثاني سجلات الأملاك الخاصة بالأحباس والوثائق المتصلة بها ككتب الفقه ونوازل العصر[1].وأدخل المسلمون إلى الأندلس نوعًا جديدًا من علف الحيوان هو البرسيم،وهو من أصل فارسي، وما زال يعرف في أسبانيا باسمه العربي الفارسي(*Alfatfa*).

تعرض المتخصصون لزراعة القطن وقصب السكر، والقطن، والكتان والحمضيات، وزراعة القمح الصلب الذي يُعتقد أن العرب هم من

---

(1) الطيبي، كتب الفلاحة الأندلسية،ص:355. توماس ف.غليك، التكنولوجيا الهيدرولية في الأندلس، الجزء الثاني، ص:1347. أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين،ص:122. بوتشيش، "نوازل ابن الحاج":مصدر جديد في تاريخ البادية بالمغرب والأندلس (إضاءات حول تاريخ الغرب الإسلامي)ص ص:32–44. بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص:475-478.

أدخلوا زراعته إلى صقلية والأندلس، كما أدخلوا زراعة الذرة، ولعلهم جلبوها من بلاد السودان، وكانت في الأندلس كالشوفان في أسبانيا المسيحية وغيرها من التقنيات المستخدمة في الزراعة الصناعية، وقصب السكر يزرع في الواجهة البحرية الشرقية ما بين **مالقة والمرية**، وبالوادي الكبير وجنوب شرق إشبيلية، وجلب أفضل قصب السكر من زنجبار وهو أصفر اللون كالليمون تُصنع منه أجود أنواع الحلويات الأندلسية المعسلة[1].وأولى الفاتحون زراعة الأشجار المثمرة في البساتين المروية حول المدن اهتمامًا أكثر مما أولوهُ زراعة الحبوب، مما جعل الأندلس تشكو باستمرار من نقص الحبوب، وتعمد إلى استيراده من العدوة، وقد احتفظ الإسبان بنظم الري العربية الإسلامية وتسميتها بعد الاسترداد كما هو الحال في بلنسية بشرق الأندلس، حيث البساتين تُسقى بالدور (*Ador*)، ويشرف على عملية توزيع ماء القنوات صاحب الساقية(***Cavacequia***) والأمناء(***Alamis***)، كما أن وثائق مدن شرق الأندلس تنص على وجوب الاحتفاظ بنظام توزيع الماء كما كان معمولا بهزمن العرب[2].

ولما ألجأ النصارى المستردون أهل الأندلس إلى سيف البحر، والبلاد المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات، وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب، فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفُدُنِ لإصلاح نباتها وفلحها؛وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره مما مؤنة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطرٌ، فاعتبروها في سعرهم، واختص لذلك أهل الأندلس

---

[1] *Lagardère, Campagnes et Paysans d'Al-Andalus, P:362.*

أمين وتوفيق الطيبي، كتب الفلاحة الأندلسية،ص:355.

[2] *Glick; Islamic and Christian Spain in Early Middle Ages,P:101.*

أمين وتوفيق الطيبي، كتب الفلاحة الأندلسية،ص:356.

بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك[1].

إن عبقرية الطغنري، وابن بصال وابن العوام، ومن قبلهم ابن وافد الطليطلي الطبيب والصيدلي الكبير كما تنعته الدراسات الأسبانية (تـ467هـ/ 1075م) الذي خدم الأمير المأمون(1037-1075)وزرع له جنة السلطان، وهي مضرب المثل في الحدائق الأندلسية التجريبية ما بين التاج والقنطرة[2]، وابن بصال هو الذي خدم أيضًا بنفس الحديقة النموذجية وعند نفس الأمير العالم والفيلسوف، والمؤلف المجهول من القرن الثاني عشر الميلادي صاحب ترتيب أوقات الغراسة والمغروسات[3] وأبي الخير الإشبيلي تُدَلِّلُ على مكانة المسلمين وما وصلوا إليه من عبقرية في علوم الفلاحة، فقد كانوا عظماء وفلاسفة ونوابغ في الفنون والعلوم النظرية والتطبيقية، ولم يكونوا نقالة لكتب وبحوث ونظريات غيرهم، كما يعتقد بعض الجاحدين لفضائل العرب والمسلمين في بناء قواعد العلم الحديث، فهم الذين بنوا الأسس العلمية بأمانة وإخلاص والدعوة إلى ذلك وجعل البرهان دليلا

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص:346.

[2] يحمل مخطوط باريس كتابا في الطب لابن وافد بعنوان كتاب في الأدوية البسيطة فهل هو غير الأدوية المفردة المنشور بمدريد.أما كتاب الأدوية المفردة، كما جاء في تصدير المؤلف فهو جمع بين كتابي دياسقوريدوس وجالينوس محمد زهير البابا، المخطوطات الطبية العربية في المكتبة الوطنية بباريس(مجلة معهد المخطوطات العربية )المجلد التاسع والعشرون، الجزء الثاني، ص: 691.ابن وافد، كتاب الأدوية المفردة،ص:9. الأمير مصطفى الشهابي، تفسير كتاب ديسقوريدوس لابن البيطار، القاهرة، (مجلة معهد المخطوطات العربية) المجلد الثالث، الجزء الأول، شوال 1376هـ/مايو 1957م.ص:106.-A.M.Lorca, La Filisofia en Al Adalus(Una apoximacion historica, P:21

[3] *Bolens, Agronomes Andalous du moyen-âge, PP:33-39.*

خوسي ماريا ميياس بيكروسا، نصوص خطية جديدة من مؤلفات ابن وافد وابن بصال والطغنري الفلاحية (مجلة تطوان للدراسات المغربية الأندلسية،العدد رقم:12. تطوان 1957م.175 وما بعدها.

شاهدًا[1]. وكان كتاب "زهر البستان ونزهة الأذهان" للطغنري(أبي عبد الله محمد بن مالك الطغنري(من قرية طِغْنر بضواحي غرناطة) (*Tignar*) من أهم الجاميع في الفلاحة والبيطرة والذي كان في خدمة الأمير الزيري عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة(465-483هـ/ 1073-1090م) ثم دخل في خدمة الأمير اللمتوني أبي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة المرابطي شقيق أمير المسلمين علي، والذي أُهْدِيَ إليه الكتاب كما هو مسجل في ديباجته، وهذا الجمع الكبير من خمسة علماء أعلام بالفلاحة وتقنياتها وتجاربها شكلوا ثورة علمية خضراء كما تقول الباحثة لوسي بولنز(*Lucie Bolens*) من جامعة جنيف حيث درست هذه الكتب في أكثر من دراسة والباحث (توماس غليك) من جامعة بوسطن[2].ومن أشهر أعلام الهندسة الفلاحية في عصر المرابطين نذكر:

**1- أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن بَصَّال (تـ499هـ/ 1105م).**

برز في علم الفلاحة إبراهيم بن محمد بن بصال الأندلسي صاحب كتاب "القصد والبيان" ويسمى في المعاجم "كتاب الفلاحة لابن بصال" توفي بقرطبة سنة (499هـ/ 1105م)[3].

---

[1] قدري حافظ طوقان، النزعة العلمية في التراث العربي،ص:83.بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص:475.

[2] *Bolens, Agronomes ( ndalous du moyen - âge;P:31.*
*L,Bolens,Les méth( des Culturales au moyen-âge d'après les traités d'agronomies,P:21.*

توماس ف.غليك،التكنولوجيا الهيدرولية في الأندلس،ص:1345-1366.أكسبريس غارثيا سانشيز، الزراعة في أسبانيا المسلمة،(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الثاني، ص ص:1367-1384.لوسي بولنز، نباتات الصباغة والنسيج(نفسه)ص ص:1385-1410.دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص:417 وما بعدها.

[3] الموسوعة الإسلامية مادة: فلاحة ص ص:922 -923. وعن الفلاحة انظر البحث المتكامل للأستاذ الفرنسي فانسان لاقاردير(*V.Lagardere*):الذي يشير إلى مخطوط أبي الخير الإشبيلي،حينما كان-

ويعتبر كتاب الفلاحة لابن بصال مفخرة أهل الأندلس قاطبة حيث اعتبره ابن حزم في رسالته "في فضل الأندلس" من أهم الكتب التي انتجتها العبقرية الأندلسية حيث يقول عن أهل الأندلس "يونانيون في استنباطهم للمياه ومُعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب "كتاب الفلاحة" الذي شهدت له التجربة بفضله"[1].ويعتبر ابن بصال من المصادر الزراعية الوثيقة والتي تعتمد على التجربة الشخصية، وأما ابن العوام فهو أميل إلى الجوانب الأدبية، ولذلك اتجه الدارسون إلى القصد والبيان أكثر من ميلهم إلى كتاب الفلاحة لابن العوام[2].وقد كانت لابن بصال حكمة عظيمة لأنه كان مكلفًا بروض النباتات الملكي في طليطلة وكانت له معلومات نظرية وتطبيقية في

---

-يتكلم عن زراعة جميع أنواع الخضار والطرق والمراحل المتبعة، كتاب الفلاحة رقم:4764 من رصيد المكتبة الوطنية بباريس.

*Vincent Lagardère, Campagnes et paysans d'Al-Andalus VIIIe-XVe s.(Islam Occident) Paris , Maisonneuve et larose 1993.p:419 et suivantes.*

وانظر أيضًا عن أبي الخير الإشبيلي وابن بصال وابن العوام وكل الذين كتبوا عن الفلاحة في الأندلس الكتاب الهام.

*Lucie .Bolens, Agronomes andalous au moyen âge,P:55*

خوسي ماريا مياس بييكروسا،**علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس** ، تعريب عبد اللطيف الخطيب ، مطبعة المخزن( معهد مولاي الحسن)، تطوان، المغرب الأقصى، 1957م.ص:43.انظر الفلاحة في الأندلس إلى غاية عصر ابن الخطيب من خلال الإحاطة:رابح عبد الله المغراوي ، **تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب**(713هـ-776هـ)ص:66. محمد بن إبراهيم بن بصال، **كتاب الفلاحة**، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي مارية بيكروسا ومحمد عزيمان، تطوان المغرب الأقصى،1955م.ص:114.

[1] المقري التلمساني، **نفح الطيب المجلد الثالث** ص:151.

*bolens, Agronomes andalous du moyen- age; P:23 et suivantes.*

[2]جيمس دكي( يعقوب زكي)، **الحديقة الأندلسية**، (**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني**، ص:1434.هامش رقم:50. كحالة، **العلوم العملية في العصور الإسلامية**،ص:190.

شؤون الفلاحة وغرس الخضر، علاوة على سفره إلى صقلية والشام ومصر وذهابه إلى الحرمين لأداء فريضة الحج،وكان مؤلفه أهم المؤلفات في نوعها بأوروبا منذ عهد العلماء الرومانيين في الفلاحة، ولانعثر على عالم في العصور الوسطى المسيحية قبل القرن الثالث عشر الميلادي تمكن مقارنته بابن بصال.وقد كان ابن العوام الإشبيلي معروفًا في الأوساط غير العربية ابتداء من سنة 1802م على الأقل، أما سلفه ابن بصال فكان مجهولا بينما مؤلفاته تعتبر في حكم الضياع، لهذا السبب أهمل في كتاب"مدخل إلى تاريخ العلم" والكلام للمؤلف جورج سارطون[1] وعليه فالإشارة إلى طبعة (مياس، عزيمان) هي بالنسبة إلى المؤلف عمل محبب لأنه يكفل له ملء الفراغ في تاريخ علم الفلاحة في عالم العصر الإسلامي في أسبانيا، والظاهرة القوية العجيبة في الكتاب هي خاصيته فهو كتاب عملي تطبيقي مدقق، فنحن لا نجد فيه رأيا يتعارض مع مادة الطب أو السحر أو التنجيم، فقد كان المؤلف رجلاً ذا تجربة تطبيقية، غير أنه ليس من الراجح أن لا يكون قد أعار الاهتمام لمن سبقه من العلماء، ولكن تجربة ابن وافد الطليطلي في البستان الشهير، هو الذي ساعد ابن بصال قبل سقوط طليطلة من إجراء تجاربه النباتية المسجلة في كتابه[2].وقد كانت الأندلس تعرف عند الجغرافيين

---

[1] لا تشاطر الباحثة لوسي بولنز السيد سارطون فيما ذهب إليه وهي تتحدث عن الأرض البعلية الفقيرة التي كانت تعتمد على ما تجود به السماء وهي الآن من أجود وأغنى الأراضي بشبه الجزيرة الإيبيرية والدليل على ذلك كما ذهبت أنها أفقر منطقة في القرن الثاني الميلادي وتحولت إلى منطقة مقاومة الوجود الروماني فحولها أهلها إلى منطقة زراعية بواسطة قنوات السقي الرومانية، ثم استفاد المسلمون من تجربتها المحلية وطوروا القنوات الرومانية جورج سارطون، **ابن بصال=كتاب الفلاحة**، (مجلة تطوان)، 1957م. ص ص:195-198.

*Lucie Bolens, Agronomes Andalous, P:144.*

كحالة، **العلوم العملية في العصور الإسلامية**، ص:201. بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص:475.

[2] جورج سارطون، **ابن بصال=كتاب الفلاحة**، ص:198.

والتجار بأقاليم غير التقسيم الإداري التقليدي الذي حدثنا عنه الرازي صاحب كتاب الرايات.

والإدريسي شخصية معتبرة في التعريف بأقاليم الأندلس وطرقاتها، وهو بذلك يعرفنا عن الأقاليم الفلاحية الهامة[1]. وغير خاف- كما ذهب إليه ابن بصال- أن بعض المزارعين امتلكوا خبرة وتجارب لتحسين مردود المحاصيل الزراعية، ومقاومة الأضرار التي تلحق بالزراعة وجلب المياه رغم أميتهم.كما نصح ابن خير الإشبيلي استخدام الشباب الأقوياء في العمل الزراعي[2] وقد ألقى أحد المعاصرين[3]باللائمة على فلاحي الحقبة المرابطية للأخطاء التي ارتكبوها في تنزيل الشجرة وزبرها، وحسبما تبينه بعض النصوص فقد كان للفلاحين أزياء خاصة بهم يبلسونها في أوقات العمل[4].والطغنري أو الحاج الغرناطي أو ابن حمدون الإشبيلي من

---

[1] حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس،(الشريف الإدريسي) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد(1961–1962م).ص ص:257-372. الإدريسي، أنس المهج وروض الفرج، دراسة وتحقيق وترجمة وتعليق،جاسم عبيد ميزال، تقديم مارية خيسوس بيغيرا، مدريد ،1989م.ص:11.

*Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana;P:809.*

[2] ابن خير الأندلسي، كتاب الفلاحة، ص:9 وما بعدها.

[3] الطغنري (أبو عبد الله محمد بن مالك الطغنري(من قرية طغنر بضواحي غرناطة)، زهرة البستان ونزهة الأذهان"، مخطوط رصيد الخزانة الحسنية بالمغرب الأقصى رقم:1534، ص:61-97 ، نقلا عن: بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص:180.وانظر نسخة ثانية لزهرة البستان بالخزانة العامة رقم:(D.1260). كما أنني سأشير لديوان الطغنري الموجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية وهي نسخة مبتورة الأول والآخر.استفدنا منها في ترميم هذا العنصر.كما اسفدنا من نقول الباحثة القديرة لوسي بولنز من جامعةجنيف والباحث إبراهيم القادري بوتشيش من جامعة مكناس الزيتون.خوان فيرنيه، العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني، ص:1303.سانشيز، الزراعة في أسبانيا المسلمة، ص:1374.

[4] ابن بصال، كتاب الفلاحة،ص:53.بوتشيش، مبحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب الأندلس،ص:179. المغراوي ، تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة،ص:67. عادل محمد علي ، عالم الزراعة والنبات=

المعاصرين للحقبة المرابطية، وقد نقل عن ابن بصال مرات عديدة، فيذكر تجاربه في زراعة الرُّمان، كما ينقل عنه أنه يمكن زراعة شجر التين في أي وقت من السنة، وأن اللوز يزرع من البذور، وينقل عنه في صفة الأرض، وجميع إشارات الطغنري إلى ابن بصال[1] تظهر مكانته في الزراعة علميًا وتطبيقيًا.غير أن الطغنري -على ما يبدو- مهندسٌ زراعيٌ تطبيقيٌ بتعبيرنا المعاصر، كما رد على أوهام ابن بصال في الباب السادس والسبعين من كتابه زهرة البستان قال الطغنري:" وقد أطنب ابن بصال في كتابه في ذكر النخيل حين ذكر أنها تشبه ابن آدم في عشرين صفة وذكر من جملة هذه الصفات أشياء أكثرها خباط ومعظمها اختلاط لا تصح بالعيان ولا تثبت بالبرهان[2].

ويذكر الجغرافي العذري(المتوفى سنة (478هـ/ 1085م)أن أمير المرية المعتصم بن صمادح من ملوك الطوائف جلب نباتات كثيرة نادرة إلى بستانه في ظاهر مدينة المرية فهو يقول: " وبنى (المعتصم) بخارج المرية بستانًا وقصورًا...وجلب إليها من جميع الثمار الغريبة وغيرها...مما لا يقدر على صفته...ويسمى ذلك البستان بالصمادحية، وهو قريب من المدينة جدًا"يقول الطغنري إن فرج العريف بالصمادحية كان صاحب تجربة إضافة إلى مهمته

---

=من خلال "كتاب الفلاحة لابن بصال"،(مجلة المورد) المجلد السادس ، العدد الرابع، (العدد الخاص بالعلوم عند العرب)،وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ، 1398هـ/1977م.ص:207.

[1] انظر النقد الموجه لابن بصال من طرف الطغنري حول غراسة النخيل، قال الطغنري:وقد وهم ابن بصال في فلاحته(النخيل) حين قال أنه يثمر لثلاثة أعوام إذا بقي ما ينبت من النوا(كذا) كامن وهذا القول في غاية من المحال، أخبرني فرج العريف بالصمادحية أن الذي غرس من التمر بغير رحم لا يستمر.."المقالة الخامسة، زهرة البستان مخطوط الجزائر، 42 ظهر،43 ظهر.

[2] نفسه،ورقة:34 وجه (نسخة الجزائر).

في حراسة البستان وعقارات الصمادحية[1]. أما محتويات كتاب الفلاحة لابن بصال فهي مقسمة إلى أبواب هي:

**الباب الأول:** ذكر المياه وأصنافها وطبائعها وتأثيرها في النبات.

**الباب الثاني:** الأرض وأنواعها وطبائعها.

**الباب الثالث:** السماد وأنواعه.

**الباب الرابع:** عن الأرض وأنواعها وجودتها.

**الباب الخامس:** دراسة الغراسة.

**الباب السادس:** بعض الطرق في فن الغراسة.

**الباب السابع:** تشذيب الأشجار.

**الباب الثامن:** تلقيح النباتات.

**الباب التاسع:** تكملة من أنواع التلقيح.

**الباب العشر:** زراعة الحبوب.

**الباب الحادي عشر:** البذور.

**الباب الثاني عشر:** مزروعات البساتين.

**الباب الثالث عشر:** البقول ذوات الأصول.

---

[1] العذري، **ترصيع الأخبار**، ص:85. الطغنري، **زهرة البستان** مخطوط الجزائر، 42 ظهر،43 ظهر.

انظر عن قصر المعتصم(الصمادحية) في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والحدائق المرابطية المكتشفة في جزيرة مايورقة وحديقة القصر المبارك الذي بناه المعتمد بن عباد وفوقه بنيت حديقة نموذجية مرابطية.جيمس دكي(يعقوب زكي)، **الحديقة الأندلسية(دراسة أولية في مدلولاتها الرمزية**، ترجمة محمد عصفور، مراجعة، همام غصيب (**الحضارة العربية الإسلامية**) الجزء الثاني، ص:1416.وصفحة: 1422.

الباب الرابع عشر: البقول والخضر.

الباب الخامس عشر: زراعة الرياحين ذوات الأزهار.

الباب السادس عشر:بعض المعارف العامة والفوائد التي يتوقف عليها أهل الفلاحة.

يدرج ابن بصال في الباب الأخير معلومات هامة وعامة عن الفلاحة وأصولها وكيفية جعلها يسيرة وناجحة، كما يفرد فصلا فيحفظ المزروعات من ديدان الأرض فيقول:" تفرش علىالأرض فرشة غلظها نحو الصبع من رماد الحمامات ثم يكون الزبل فوق هذا الرماد ثم تزرع الأرض، فإن ذلك الرماد يكون حجابًا بين النبات وبين الحيوان المضر).وإذا أردنا التعريف بهذه الأبواب فإن ابن بصال وزع أبواب كتابه على النحو التالي:

"من الباب الأول إلى الرابع يتناول فيها المؤلف الأمور الأساسية المتعلقة بالزراعة أصلا وهي: المياه، وطبيعة الأرض وأنواعها وأنواع المعالجات الزراعية(السماد، أو الزبل) واختيار الأرض،ومن الباب الخامس إلى التاسع يحدثنا ابن بصال عن الثمار من حيث غرسها وريِّها ومواعيد الأمرين، وكيفية ضروب الغراسات والتكابيس وتركيب أشجار الثمار بعضها في بعض وغرائب فن التركيب (التطعيم) وأسراره، ويخص الباب العاشر بزراعة الحبوب والقطاف الحادي عشر للبذور، والثاني عشر للقثاء والبطيخ وما إليهما، والثالث عشر للبقول ذات الأصول(الجذور)، والرابع عشر لزراعة خضر البقول، والخامس عشر للرياحين، أما الباب السادس عشر والأخير فهو، على قول ابن بصال نفسه:"هو باب جامع لمعان غريبة ومنافع

جسيمة من معرفة المياه والآبار، واختزان الثمار وغير ذلك مما لا يستغني أهل الفلاحة عن معرفتها، إذ هي من تمام أعمالها واستكمال فائدتها[1].

يقسم ابن بصال المياه إلى أربعة أنواع هي: ماء المطر، ومياه الأنهار، ومياه العيون، والآبار، ويعين كل نوع منها والنباتات التي تناسبها، فعلى سبيل المثال:ماء المطر عذب رطب معتدل، تقبله الأرض قبولا حسنًا،وهو أفضل أنواع المياه وأحمدها ويجود به جميع أنواع النباتات[2]، كما يفصل في أنواع التربة وهي عشرة، مبينا صلاحية كل نوع للنبات الخاص بها مع الاهتمام بتفاصيل أنواع السماد اللازم في كل حالة وكمية المياه وعدد مرات السقي، ويدل الفصل الخاص بالتطعيم عن خبرة وتجربة طويلة، ويدقق ابن بصال في طرق البستنة والغرس بين الطريقة الصقلية والشامية والأندلسية، مما يجعلنا ندرك أن التجربة أم العلم الزراعي لهذا أصبح المهندس الزراعي في الأندلس والغرب الإسلامي عامة أحد صناع الحضارة الإسلامية في العصر الإسلامي الذهبي[3].

إن ابن بصال عبقرية في عالم النبات والبيطرة، ولهذا فليس خافيا على مؤرخ علوم الإسلام أن يعرف مكانته في هذا الباب الكبير[4].ولم يكن ابن

---

(1) عادل محمد علي، عالم الزراعة والنبات من خلال "كتاب الفلاحة لابن بصال"ص:207.نقولا زيادة، صانعو الحضارة العربية الإسلامية"الزارع"مجلة العربي العدد:518، الكويت يناير 2002م. ص:80-81.

(2) يقول ابن الخطيب:"قالوا أفضل المياه، مياه العيون، وبخصوص العيون الحرة الأرض،وهي التي لا يغلب على تربتها شئ من الكيفيات الغريبة"، وأما المياه المختارة فهناك اتفاقيين ابن بصال وابن الخطيب حول ماء المطر خاصة ماء المطر الصيفي، ابن الخطيب، مختارات من كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول،تحقيق، محمد العربي الخطابي،(الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية) الجزء الثاني، ص:2.جمال الدين العلوي، المتن الرشدي،ص:92.

ابن العوام، كتاب الفلاحة، تقديم محمد الفايز، ص:195.سانشيز، الزراعة في أسبانيا المسلمة، ص:1370.

(3) ابن الخطيب، مختارات من كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول، ص:81.

(4) عادل محمد علي، عالم الزراعة والنبات من خلال "كتاب الفلاحة لابن بصال" ص:206-207

بصال هو العالم الوحيد بشؤون الفلاحة في الأندلس، فيكفي أن نتذكر ابن وافد وتلميذه ابن اللوينغو، والبكري، وابن الحجاج وأبا الخير الإشبيلي والمؤلف المجهول من عصر المرابطين وغيرهم من العلماء. وقد كان لابن بصال حنكة وتجربة عظيمة لأنه كان مكلفًا بروض النباتات الخاصة بطليطلة وكانت له معلومات نظرية وتطبيقية في هذا الشأن، علاوة على رحلاته وأسفاره العلمية إلى الشام ومصر وصقلية، وكان كتابه من أهم المؤلفات في العالم الإسلامي وأوروبا[1].وهو من رجال القرن السادس الهجري،الثاني عشر الميلادي وقد قام محمد العربي الخطابي بتحقيق ومراجعة وترتيب هذه المصادر الفلاحية ضمن كتاب عمدة الطبيب لأبي الخير الإشبيلي[2].

وليس معناه أن عصر المرابطين كان خاليا من علماء في شتى المجالات ومنها النباتات الزراعية والطبية، ومن ذلك ما قام به أبو الخير الإشبيلي، صاحب كتاب عمدة الطبيب في معرفة النبات[3] وكان نشاط الأندلسيين الفلاحي يدل على حسن استغلال المناطق الغنية بالمياه كالسواحل وضفاف الأنهار ومد القناطر ونصب النواعير، وغرسوا جميع أنواع الغروس، وأتقنوا هندسة المياه واستغلالها وأبدعوا في بناء الحدائق والمنيات وأجروا المياه إلى البساتين البعيدة من عيون نابعة من الجبال وخبروا جميع أنواع النباتات، وقسموا التربة إلى لينة وغليظة، ورملية وجبلية وحرشاء مضرسة، ومدمنة

(1) لطف الله قاري،رحلة عالم نبات أوربي في المشرق العربي (مجلة الفيصل )العدد 286 ، ربيع الآخر 1421هـ-يوليو/أغسطس/2000م.ص:102.

(2) عبد الله كنون، ابن بصال، كتاب الفلاحة، عرض وترجمة، (مجلة تطوان) المغرب الأقصى، 1957م. ص:195 وما بعدها. عادل محمد علي، عالم الزراعة والنبات من خلال "كتاب الفلاحة لابن بصال"،ص:206.

(3) أبو الخيرالإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، (جزءان)، الجزء الأول، تحقيق ونشر محمد العربي الخطابي الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1990م.ص:15 (مقدمة المحقق).

محترقة، وكل أنواع هذه الأراضي عرفوا ما يصلح لها من نبات، وعرفوا كيفية غرسه وأوقاته ومكانه وما يحتاجه من سماد طبيعي وكيفية زبره وتطعيمه، وكيفية معالجته أمراضه، وأوقات جني ثماره وأزهاره فطوروا هذا العلم منذ تقويم قرطبة لعريب بن سعيد الذي سيكون أول رسالة أندلسية في الزراعة الأندلسية إلى كبار المهندسين في هذا العصر مدار الرسالة[1].

**2- الطغنري(أبو عبد الله محمد بن مالك)**

**(من قرية طغنر بضواحي غرناطة)**

حالما ندخل في طيات رسائل الزراعة الأندلسية نلاحظ الدور الحيوي الذي يؤديه عنصر الماء، فهي تدرسه في المقدمة إلى جانب عنصري التربة والأسمدة، ويمكن القول إن الطغنري الغرناطي هو أحد المؤلفين الأكثر أصالة ضمن أولئك الذين تناولوا موضوع المياه، ولاسيما ما يتعلق بحفر الآبار والتنقيب عن المياه، فهو يتبع بكل عناية الأساليب المذكورة في الفلاحة النبطية[2]، بعد أن يطرح منها الجوانب الغيبية، كما أن العوامل الغيبية تبدو في رسائله معدَّلة ومندمجة بالعوامل العقلانية، وهو يعول أخيرًا علىتجاربه الشخصية التي يعارضها أحيانًا بأساليب تعلمها خلال أسفاره في بلاد الشام وإفريقية[3].

الحاج الطغنري الغرناطي مؤلف كتاب ضخم في عهد تميم بن يوسف بن تاشفين المرابطي حينما كان واليا على غرناطة(**1107-1118م**)، ويحكي فيه أخبارًا مهمة عن ابن بصال وابن حجاج الإشبيلي صاحب المقنع

---

[1] محمد بن إبراهيم بن بصال، كتاب الفلاحة،ص:58 وما بعدها.

*bolens, Agronomes Andalous,op cit p:24 et suivantes*

[2] ابن كمونة، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث، ص :41 وما بعدها.

[3] إكسبيربس غرثيا سانشيث، الزراعة في إسبانيا المسلمة الجزء الثاني ص:1379.

في الفلاحة[1].وهو الذي يسميه ابن العوام بالحاج الغرناطي[2] وذلك في معرض حديثه عن التفاصيل.كما اطلع على الفلاحة الهندية والفلاحة النبطية لابن وحشية(أبي بكر أحمد بن علي بن المختار الكلداني) توفي عام (296هـ/ 909م) وما كتب الطبيب إسحاق الإسرائيلي، وهو يصرح بمصادره ويرد على تجارب المهندسين الزراعيين الذين سبقوه بالحجة والتجربة، فالطغنري حجة في عالم الزراعة وتقنياتها، كما يتحدث عن تاريخ المزروعات الغريبة الوافدة على أوروبا وبلاده الأندلسية بثقة واطلاع واسع كزراعة التين والنخيل والسكر والكتان، وطرق التلقيح ويخصص بابًا لكل نوع من المزروعات، ولا يدلك على هذا المشروع الحضاري الكبير إلا خبير بها مطلع عليها.فلو حدثك عن تهيئة الأرض لزراعة قصب السكر، لعرفت أصالته كما يرد علىآراء ابن وافد صاحب كتاب الأدوية المفردة حول قصب السكر بطريقة علمية وعملية ناضجة[3].

إن تجارب الحاج الطغنري أو الحاج الغرناطي قيِّمَة من حيث طريقة العرض كأنك أمام مدرس خبير، وهو يشبه في التأليف والعرض والخبرة طبيب عصر المرابطين عبد الملك بن أبي العلاء زهر(تـ557هـ/ 1167م) وكذلك الغساني صاحب حدائق الأزهار في ماهية العشب والعقار[4] يقول

---

[1] ابن حجاج(أحمد بن محمد) **المقنع في الفلاحة**،ترجمة ودراسة كرابانا برابو(جزءان)(*Carabaza Bravo*) غرناطة 1987م.ص:11(المقدمة).ابن حجاج الإشبيلي(أبو عمر أحمد بن محمد)، **المقنع في الفلاحة**، تحقيق صلاح جرار، وجاسر أبو صفية، تدقيق وإشراف عبد العزيز الدوري، عمان، الأردن، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1982م. *Faraj(a)relations médicales hispano-maghérebines au XII^e siècle paris .1935.P:35.*

[2] *Bolens, Agronomes Andalous, P:31.*

[3] الطغنري، **زهرة البستان**،نسخة الجزائر، ورقة:39 وجه.ابن وافد، **كتاب الأدوية المفردة**، ص:113.

[4] الغساني أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم، **حدائق الأزهار في ماهية العشب والعقار**، تحقيق محمد العربي الخطابي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990م.ص:5 (مقدمة التحقيق).

الحاج الطغنري في إشارة هامة للبيئة وتأثيرها على الإنسان وهو يتكلم عن التركيب والتطعيم:

إن التركيب هو صلاح الأشجار وجمال البساتين والمستغرب من أعمال الفلاحين به يقرب ما بعد إثماره فتقرب فائدته ويدنو وقته، ولذلك إذا أذمِنَ نصب المواضع واختلاف الأهوية عليها وتأثيرها في سكانها وفي نباتاتها وما يجب من الأشجار من كل بلاد وما لا يجب فيه..[1].

## 3- أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي (تـ539هـ/ 1145م)أو(569هـ/ 1175م).

برز في هذا العهد ابن العوام الإشبيلي، **يحيى بن أحمد بن العوام الإشبيلي** يكنى أبا زكريا، نبغ في **إشبيلية وكتابه الفلاحة** هو أهم كتاب عربي من هذا النوع، حيث استفاد من تجاربه العلمية العملية العميقة، وقدم وصفا دقيقا لعدد يبلغ (*585*) نوعا من النباتات ذكر منها(*55*) نوعا من الأشجار المثمرة ولم يتردد **ماكس مايرهوف في التصريح " بأن هذا الكتاب ينبغي أن يعد أحسن الكتب العربية في العلوم الطبيعية وعلى الأخص علم النباتات**"[2].

ومؤلفه "**كتاب الفلاحة**" جاء في أربعة وثلاثين فصلا، يبتدأ ابن العوام كتابه في سرد بعض العموميات ثم طبيعة الأراضي والحقول ثم السماد فالمياه[3].

---

[1] الطغنري، **زهرة البستان ونزهة الأذهان**، ورقة:74 وجه.

[2] الدوميلي، **تاريخ العلم عند العرب**،ص:401.ابن العوام، **كتاب الفلاحة**، تقديم محمد الفايز، ص:13.

سانشيز، **الزراعة في أسبانيا المسلمة**، ص:1372.لوسي بولتز، **نباتات الصباغة والنسيج(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)**الجزء الثاني، ص:1390-1391.

[3] ابن العوام، **كتاب الفلاحة**، ترجمة فرنسية ل(ج ج كليمان مولى) تونس،دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1977م.ط.2،ص:20.

وجاء ذكر ابن العوام في مقدمة العلامة عبد الرحمن بن خلدون في معرض حديثه عن الفلاحة فقال:إنّ ابن العوام اختصر كتاب 'الفلاحة النبطية'، واقتصر على الكلام عن النباتات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له بمثل ذلك[1].

مات ابن العوام وترك موسوعة في علم الفلاحة والمعاهد الفرنسية للفلاحة تبدأ برامجها بدراسة كتاب الفلاحة لابن العوام.وأما بلاد الإسلام فلا يعرف شبابها المتعلم أي شيء عن هذا العالم الكبير.توفي ابن العوام عام(539هـ/ 1145م)أو 569هـ/ 1175م) بحسب الاختلافات بين الباحثين إلا أن الشيء الثابت أنه عاش مرحلة النضج العلمي والعملي في عهد المرابطين- وترك تجارب عديدة في ميدان الفلاحة والبيطرة إذ إلى جانبه كمهندس في الفلاحة فهو على درجة كبيرة في علم الحيوان 'البيطرة'.وقد ترجم هذا الكتاب إلى الأسبانية بونكاري(*Banqueri*) سنة 1820م، كما نشر ترجمته الفرنسية كلمون ميللي(*Clément Mulet*) سنة 1846 وأعيد نشر هذه الترجمة بتونس سنة 1977م.

وإذا تتبعنا الأبحاث الجديدة، فإن التطور الزراعي وعلم البستنة ومعالجة الأمراض الخاصة بالنبات والحيوان(علم البيطرة) قد عرفت عصرًا ذهبيًّا قلما عرفته الأندلس، ولا يمكن أن نعرف مدى التطور الذي عرفته علوم الفلاحة إلا بالعودة إلى كتب الفقه وكتب المسائل المعاصرة لعصر المرابطين، كمسائل ابن رشد الجد، ونوازل ابن الحاج الشهيد، كما ننوه بأعمال الباحث الفرنسي

---

= *Lagardère, Campagnes et paysans d'Al-Andalus, P:423.*

عادل محمد علي، عالم الزراعة والنبات من خلال "كتاب الفلاحة لابن بصال" ص:204. ميارس بييكروسا،علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، ص:43.ابن العوام، كتاب الفلاحة، تقديم محمد الفائز، ص:11.

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص:492.

فنسان لاقاردير (*Vincent Lagardère*) من خلال مجموعة أبحاثه الخاصة بالريف والمزارعين بالأندلس كما نشير إلى العمل الكبير الذي قام به حول نوازل الونشريسي[1] الذي يعالج الحياة العقارية والزراعة بمختلف أشكالها[2]، والأعمال الهامة للباحثة لوسي بولنز(*Lucie Bolens*) وكذلك المحاولة الجادة التي قام بها الباحث المغربي إبراهيم القادري بوتشيش من جامعة مكناس الزيتون،في أعماله حول القبيلة ومفهوم الطبقة الاجتماعية والزراعة والملكية العقارية ووضعية الرعاة والأجور وحالة البؤساء والمعوزين والمتسولين والعبيد وأقنان الأرض وعلاقاتهم داخل النظام والمشروع المرابطي، الذي يرى أن اقتصاده يقوم على اقتصاد الغزو، وأعمال الباحث محمد حسن من الجامعة التونسية[3] أو ما يختزله الجابري، في العلاقة

---

(1) انظر: *Lagardère , Campagnes et Paysants d'Al-Andalus - P:19 et suivantes.*

(2) *Lagardere(V);Histoire et société en occident Musulman au Moyen âge , Analyse du Mi'yar d'al-Winsharisi,collection de la casa de Velazquez, N°53,Madrid,1995,536 pages.P;234*
*Lagardère(V)Terres communes et droits d'usages en al-Andalus(Xe-XVe siècles) Biens communs, Patrimoines collectifs et gestion communautaire dans les sociétés Musulmanes( revue des mondes musulmans et de la Méditerranée 79-80-1996)(Edisud)France 1997;PP.43-54.*
*Piérre Guichard,notes sur les quelques recherches en cours à propos de l'organisation collective des communes rurales en al-Andalus;REMMM-79-80,1996.1-2.PP:257-262.*

(3) انظر أعمال بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين ص:178. بوتشيش، دور المصادر الدفينة في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التأسيس حتى أواخر عصر الموحدين،ص:135 وما بعدها.وحول الأزمات الاقتصادية ودور طبقة المتصوفة في الحفاظ على التوازن الاجتماعي خاصة الفترة الممتدة ما بين 524هـ،539 هـ.عصر المسغبة والمجاعات والأوبئة انظر بعض الإشارات.بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص:172. بوتشيش،"نوازل ابن الحاج":مصدر جديد في تاريخ البادية بالمغرب والأندلس(إضاءات حول تاريخ الغرب الإسلامي)ص ص:32-44. بوتشيش،العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري نماذج من تاريخ المستضعفين في حواضر المغرب الإسلامي(الإسلام السري)ص:172.بوتشيش،=

بين القبيلة والغنيمة[1]، فأين نضع تفسيرات المؤرخين ورجال الاقتصاد من النظريات التي تتحدث عن ظاهرة الهجرة والنزوح، والإنتاج الاقتصادي العائلي؟ والملاحظ أن التفسيرات التي أعطيت لظاهرة خروج المرابطين لا ينطبق عليها ما ذهب إليه المفكر والمؤرخ إسماعيل راجي الفاروقي في كتابه القيم " أطلس الثقافة الإسلامية" [2] حيث حدد مسألة الهجرات فيقول: إنَّها قديمة جدًّا وعادية وتعود إلى ثلاث عوامل:

أولا:حصول زلازل أو فيضانات أو جفاف أو تصحر.

ثانيًا: التقارب بين القبائل ونزوح عشيرة إلى جيرة عشيرة أخرى بسبب قرابة الدم أو لسبب سياسي وتضامني.

ثالثًا: البحث عن حياة أفضل وأرض خصبة توفر الماء والكلأ والمعاش والحرية.

ويرى، المفكر إسماعيل راجي الفاروقي أن معظم الهجرات حدثت من الجنوب إلى الشمال وساهمت في خلط التركيبة السكانية كل فترة زمنية وتشكيل علاقات اجتماعية وسياسية تعتمد على القرابة والمصاهرة، الأمر الذي أدّى إلى نشوء نمط إنتاجي قرابي -عشائري قبلي-جغرافي يعطي

---

=الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الجزء الأول، ص ص:141-143.محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي(جزءان)، الجزء الأول، ص ص:9-24.

*Lagardère,Structures étatiques et communautés rurales; les impositions légales et illegales en al-Andalus et au Maghreb(XIe-XVe) Studia Islamica;G.P. Maisonneuve-Laroze, Paris1994.PP:57-95.*

وليد عبد الله عبد العزيز المنيس، الحسبة على المدن والعمران،ص:85 وما بعدها.عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر(مقاربة اجتماعية)، الجزء الأول،ص:65 وما بعدها.

[1] الجابري، العقل السياسي العربي، ص:102.

[2] انظر:إسماعيل راجي الفاروقي، ولوس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ص:464.

*Ismail Alfaruqi,and lois Lamya Alfaruqi; The cutural Atlas of Islam(New York:Macmillan publishing Com.and London:collier M.P;1986)PP:11-12.*

علاقات الرحم والحسب والنسب والدم الأولوية في سياسات المصاهرة والدفاع والتحالفات والصداقات، ونلاحظ أن تفسيرات الفاروقي أعقد من تفسيرات المؤرخين الذين يقولون بالتفسيرات المناخية التي ركز عليها أغلب من أرّخ للمرابطين، مع العلم أن الهدف لم يكن وراء خروج قبائل اللثام للغزو والبحث عن الغنائم، بل كانت الفكرة القوية التي حملوها، أقوى من أي هدف على الأقل عند الجيل الأول من المرابطين الذين حافظوا على الصورة الإصلاحية للمشروع السياسي والفكري الذي أقامه الإمام أبو محمد عبد الله بن ياسين الجزولي، والسؤال المطروح:هل حقق المرابطون من خلال فقه التحضر الذي تبنوه مشرعهم الشامل وهو وحدة الغرب الإسلامي أو وحدة الجماعة؟ وهل حققوا الأمن للسابلة وحرية التبادل التجاري ثم حققوا حركة فكرية وتنويرية بالمنطقة التي وحدوها؟. هذا هو موضوع الإشكالية التي نحدد بصدد وضع قواعدها على بينة من الأمر، ومن أهم قواعد المشروع الحضاري والفكري للدولة المرابطية تحقيق الرفاهية، ومنها العناية بالفلاحة علمًا ومشروعًا اقتصاديا[1].وغير خاف عن الباحثين أن الفلاحة قد عرفت علماء كبار ساهموا بأعمالهم وأبحاثهم وخبراتهم في تطوير هذا العلم تطويرًا كبيرًا ناضجًا بحكم التجربة وتنوع المناخ والتربة والجو المناسب.

ونلاحظ-داخل علوم النبات والفلاحة بالأندلس- التحولات الكبرى للزراعة الأندلسية في إطار منظومة الحضارة الإسلامية، وقد بينت الإشارات القليلة التي ذكرناها وجود ثورة زراعية كبيرة بالأندلس خلال

---

[1] وليد نويهض، **الإسلام والسياسة(نشوءُ الدولة في صدر الدعوة)**، بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، سبتمبر 1994م.ص:29. توفيق مزاري عبد الصمد، **التنظيمات العسكرية المغربية في عهدي المرابطين والموحدين**، ص:52.إغناسيو أولاغي، **الثورة الإسلامية في الغرب**،ترجمة إسماعيل الأمين بعنوان" **العرب لم يغزوا الأندلس**" لندن، رياض الريس للكتب والنشر،1991م.ص:106.

القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين مجال التحضر الأندلسي في عهد المرابطين وهي الفترة الذهبية للتطور العلمي الزراعي؛ فبعد قرطبة وطليطلة أصبحت إشبيلية عاصمة زراعية مشهودة حيث أصبحت مزرعة جبل الشَّرَف المشهورة نموذجية[1] يقوم عليها العمال والمهندسون الزراعيون منذ أيام المعتمد بن عباد إلى دخولها تحت سيطرة لمتونة، حيث أصبحت هذه المزرعة النموذجية مخبرًا لكل علماء المرحلة الذين ترجمنا لهم في هذا العنصر الخاص بعلوم الزراعة وتطورها،وكانت إلى جانب إشبيلية والمرية وبلنسية من أهم الحواضر الزراعية في عهد المرابطين؛والتي عالجت تربتها وأشجارها معظم الدواوين الفلاحية التي وصلتنا في هذه الحقبة[2].

ففي قرطبة نذكر الطبيب الشهير أبا القاسم الزهراوي صاحب كتاب مختصر كتاب الفلاحة، وبطليطلة نشير إلى ابن وافد الطليطلي(1008-1075)خادم الأمير المأمون(1035-1075) الذي أوجد له البستان الشهير (جنة السلطان) الموجود بين القنطرة والتاج، وابن وافد الذي استفاد من جداول طليطلة المشهورة، الذي حافظ عليها العالم القشتالي مياس فاليكروسا المعاصر لابن وافد نفسه، كما جرب ابن بصال خبرته بنفس المزرعة النموذجية الخاصة بالمأمون، وقد ألف بالمناسبة كتابه المذكور أعلاه كتاب القصد والبيان ذائع الصيت، وبعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس انتقل ابن بصال إلى إشبيلية واشتغل في بساتين المعتمد بن عباد كما

---

(1) انظر:

*Mohamed El-Faiz «L'Aljarafe de Seville; un jardin d'éssais pour les Agronomes de l'éspagne Musulmane» The authentique Garden,Sumposiuom;Leiden, 1990.P: P:5-14. Lagardere,Campagnes et paysans d'Al-Andalus,P:483.note.N°-2. Mohamed El-Faiz «L'Aljarafe de Seville; un jardin d'éssais pour les Agronomes de l'éspagne Musulmane» Hespéris-Tamuda, Maroc, N° 29(1)1991;PP:5-25.*

(2) *Loucie Bolens,les Méthodes culturales au moyen -âge d'après les traités d'agronomies andalous: traduction et technique, Geneve,1974. P:41 et suivantes.Bolens, Agronomes Andalous au moyen-age,PP:24-39. Lagardere,Campagnes et paysans d'Al-Andalus,P:481*

صنع له بستانا نموذجيا شبيهًا بمزرعة المأمون سلطان طليطلة، وهناك تعاون مع المهندس الزراعي ابن اللوينغو(المتوفي عام499هـ/ 1105م) في عصر المرابطين وتلميذ المنهدس الزراعي والفقيه أبي عمر بن حجاج الإشبيلي صاحب كتاب المقنع، الذي ألفه سنة **466هـ/ 1073م**. وابن وافد الطليطلي الطبيب صاحب كتاب الأدوية المفردة، وابن اللوينغو الإشبيلي جرب علمه وخبرته في مزرعة وبستان الشرف الخاص بالمعتمد بن عباد، الذي تميز بتربته الحمراء[1]، وفي هذا البستان قام ابن حجاج الإشبيلي بتجاربه الزراعية على التربة الحمراء الدقيقة بعد معالجتها، وكان بستان الشرف يحتوي على منيات وضياع وقرى كانت مجال التجارب الفلاحية النادرة، وهذه التجارب الفلاحية بالمرية وطليطلة سجلها المهندس الزراعي الطغنري الغرناطي في كتابه زهر البستان ونزهة الأذهان[2].والطغنري هو القائل: "والزراعة والغراسة التي بهما قوام الحياة وقوت الناس" وكأنه مهد السبيل للعلامة ابن خلدون الذي يقول:"هذه الصناعة(الفلاحة) ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه ودواعيه، وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت

---

[1] *El-Faiz «L'Aljarafe de Seville; un jardin d'éssais,P:22*

[2] انظر عن حديقة التجارب الزراعية ببستان الشرف بإشبيلية: الطغنري، زهر البستان ونزهة الأذهان،مخطوط رصيد المكتبة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط رقم:(*D:1260*) ورقة:74وجه.

*Mohamed El-Faiz, » L'Aljarafe de Seville; un jardin d'éssais pour les Agronomes de l'éspagne Musulmane. Lagardere,Campagnes et paysansd'Al-Andalus,P:483.note.N°-2.*

الطغنري، زهر البستان ونزهة الأذهان، مخطوط رصيد المكتبة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط رقم:(*D:1260*) ورقة:132وجه-133ظهر.انظر: نسختنا بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم:2163.

نقلا:عن: *Lagardère,Campagnes et paysans d'Al-Andalus,P:483.note.N°-2.*

نماذج من التراث العلمي العربي، تقديم وتحقيق وتعليق، الدكتور محمد سويسي، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، 1421هـ/2001م.ص:204.

المكمل لحياة الإنسان غالبًا، إذ لا يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من القوت[1].

لقد كانت عناية ابن خلدون بالزراعة من حيث ارتباطها بتحصيل القوت، لكن العمل الزراعي فيه أكثر من ذلك، فهناك الأشجار غير المثمرة التي تزود الناس بالأخشاب للصناعة والحطب للوقود، والرياحين والزهور وما إلى ذلك، وهذه الصناعة معقدة في أساليب الغرس والري والعناية في نواح مختلفة، لقد كان مهندسو الزراعة في الحقبة مدار هذه الدراسة هم أعلام الزراعة دون منازع بإجماع الباحثين وهم ابن وافد، وابن حجاج(أبو عمر أحمد)صاحب المنية في الزراعة، وابن بصال وابن العوام والمؤلف المجهول[2] من عصر المرابطين وابن اللوينغو والحاج الطغنري الغرناطي، فكل واحد من هؤلاء يصح أن نسميه مهندسًا زراعيا، لأنه قام بتجارب متنوعة تتعلق بالأرض والري والزبل[3] والحفاظ على الشجر[4].ويظهر صدى الدواوين الفلاحية الكبرى بالأندلس في عصري المرابطين والموحدين في أرجوزة ابن ليون التجيبي، الذي لخص ونظم هذه الكتب في العصر النصري، ففي منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي صنف الفقيه أبو عثمان

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص:492.

[2] مجهول(من عصر المرابطين)،كتاب في ترتيب أوقات الغراسة والمغروسات، ترجمة وتحقيق لوبيث(*A.C.Lopez y Lopez*)، غرناطة، 1990م.ص:33 وما بعدها.ابن العوام، كتاب الفلاحة، تقديم محمد الفايز، ص:15.ابن ليون، كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول الفلاحة، الخزانة العامة الرباط رقم:1352.

نقلاعن سانشيز، الزراعة في أسبانيا المسلمة(الحضارة العربية الإسلامية)الجزء الثاني، ص:1394.

[3] حدد ابن بصال الأنواع الخاصة بالسماد في جانب هام من كتابه ومنها:" روث الخيل والبغال والحمير،وأنواع السماد(السرقين) قال عنه ابن بصال حار رطب، ومفيد للتربة والنبات وينبغي تنقيته من التبن.ابن بصال، كتاب الفلاحة،ص:49-50.

[4] نيقولا زيادة، صانعو الحضارة العربية الإسلامية"الزارع"،ص:80.

سعد بن أحمد بن لُيون التجيبي، كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة، في أصول صناعة الفلاحة وهوكتاب فقيه هاو، اختصر فيه نظمًا كما سلف ما جاء في مؤلفات ابن بصال، والطغنري وأبي حنيفة الدينوري، مضيفًا معلومات قيمة. تشتمل أرجوزة ابن ليون في الفلاحة على 1300 بيت، وقد نشرها عام 1975م-مع ترجمة باللغة الأسبانية-خواكينا إجواراس إبانيث[1] معتمدًا على مخطوط فريد للأرجوزة بجامعة غرناطة، تم نسخه قبل سنة واحدة من وفاة ابن ليون، وكانت وفاته في المرية في الطاعون العام، في 14 جمادى الآخرة سنة 750هـ/ 30 اغسطس1349م[2].وتحدث ابن ليون التجيبي عن أركان الفلاحة الأربعة، الأرض والماء والزبل والعمل، وغرس الأشجار وتركيبها، وزراعة الحبوب والأرز والقطن وقصب السكر والحناء، وأعمار الأشجار وما يمنع عن صغارها النمل والفراش، وأخيرًا ما يراعى في تخطيط البساتين، وما يقام بها من مساكن وديار، ويعدد ابن ليون أركان الفلاحة فيقول:

وهي الأراضي والمياهُ والزبولُ    والعملُ الذي بيانه يطـولُ

والأرض عشرة أنواع على رأي ابن بصال: ويختتم ابن ليون التجيبي أرجوزته في الفلاحة بالحديث عن ترتيب البساتين ومساحاتها وديار البادية فيقول:

---

[1] تتلمذ ابن ليون فـي المرية،على ابن خاتمة الأنصاري، ولسان الدين بن الخطيب، وأبي جعفر بن الزبير، وابن رشيد الفهري،انظر:المقري، نفح الطيب،الجزء الخامس، ص:543. الطيبي،كتب الفلاحة الأندلسية(أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحة)، ص:360.سانشيز، الزراعة في إسبانيا المسلمة، ص:1368.

*Joaquina Eguarras Ibanez,Ibn Luyun:Tratado De Agricultura, Granada 1975.*

[2] أمين توفيق الطيبي، كتب الفلاحة الأندلسية( أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحة)، ص:360.

تنظــــر للقبلــــة والباعــــل قــرب وللـصهريج والبـشر اعـتلا
أو عـــوض البئـــر تكـــون ســـاقية بالمـاء مـن تحـت الظـلال جاريـة
ومـــا لــــه بابـــان فهـــو أســـترْ وراحـــةُ الـــساكن فيهـــا أكثـــرُ
ثـم يلـي الـصهريج مـا لا يـسقطْ ورقّــه مـــن كـــل مـــا ينـــشّطُ

ويختم الأرجوزة فيقول:

فهـــذه الفلاحـــةُ المـــشتهرة منظومـــة أصـــولُها منحـــصرة
لـذا بإبـداء الملاحـة اسـتمدتْ كمـا بإنهـاء الرجاحـة اعْتَلَـت[1]

ولا نعدم النصوص المخطوطة والمنشورة التي تفرد الأبواب الكاملة للأكرية والمساقاة، والجائحة والشركات، والرحا وقوانين توزيع المياه في الأندلس في عصر المرابطين، مما يبرز التطور الفقهي والقانوني في مجال الفلاحة ومتطلباتها، كما أن النبش في النصوص المخطوطة وفي نوازل ابن الحاج خاصة رغم صعوبة قراءة نصوصها الممتعة لتي تكشف عن وضع الفلاحين والريف الأندلسي. والنصوص الموضحة للفلاحة الأندلسية في عصر المرابطين تبرز المستوى التقني والعلمي من جهة كما تبرز جهل بعض الفلاحين بأصول الفلاحة وتقنياتها، كما يصرح الطغنري في أكثر من مرة في

[1] أمين توفيق الطيبي، كتب الفلاحة الأندلسية( أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحة)، ص: 361-366.

ديوانه الضخم[1]. كما يتحدث الحاج الغرناطي الطغنري عن الطرق التي جلبت بها الأشجار والنباتات، وحرص أهل الأندلس على تنويع المحاصيل الزراعية ومن ذلك حديثه عن السفير الشاعر يحيى الغزال الذي استجلب معه زريعة التين حين وجهه الأمير عبد الرحمن الثاني(الأوسط) عام 225هـ/ 840م من قرطبة إلى القسطنطينية رسولا إلى بيزنطة[2].

كما أن الخبرة التي تمتع بها عالم النباتات في تاريخ العالم الإسلامي قد شكلت الأرضية والتجربة للمدرسة الأندلسية وتجاربها حيث أظهرت حالة الفلاحين والمعوزين.

وبعد استعراضنا لحالة الفلاحة في الأندلس في عصر المرابطين وجدنا تناقضًا كبيرًا بين ما كتب كل من عز الدين موسى[3] وكمال السيد أبو مصطفى[4] وحسن علي حسن[5] وما تصفه أعمال إبراهيم القادري بوتشيش،[6] فهل حقيقة أن الرخاء الذي شهدته منطقة الغرب الإسلامي منذ قيام المرابطين وحتى حكم الناصر الموحدي كان ناتجًا عن إدارة مالية منظمة، فضلا عن ازدهار زراعي وتقدم صناعي ونشاط تجاري[7]. لقد غيب المؤرخ

---

[1] الطغنري، **زهر البستان ونزهة الأذهان**، (نسخة الجزائر)، ص:51.

[2] نفسه نسخة الجزائر) ورقة 12ظهر، نسخة الرباط(ورقة 132ظهر 133وجـه). الطيبي، **كتب الفلاحة الأندلسية**، ص:357. جلال مظهر، **مآثر العرب على الحضارة الأوروبية**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،1960م.ص:121. بروفنسال، **تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة في القرن التاسع الميلادي(الإسلام في المغرب والأندلس)**، ص:100.

[3] عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي**،ص:127 وما بعدها.

[4] كمال السيد أبو مصطفى، **تاريخ الأندلس الاقتصادي**، ص:381.

[5] حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"**ص:232.

[6] بوتشيش، **مباحث**، ص:178.بوتشيش،**الانتاج الصناعي بالمغرب والأندلس المرابطين(إضاءات)**ص:92.

[7] حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين"**ص:183.
إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول**، ص:239. بلغيث، **الرُّبُطُ بالمغرب الإسلامي**،ص:243.

الرسمي أخبار المعوزين والفقراء في الغرب الإسلامي عصر المرابطين، إلا أننا في مجال الفلاحة كعلم وممارسة تتركنا نشير في هذا العمل إلى أهمية استدرار المصادر الدفينة، والقصد من هذا تسجيل مدى نجاح المرابطين في تحقيق التوازنات الاجتماعية؛ لأن نجاح أي مشروع دعوي أوسياسي لا يتأتى إلا بتحقيق العدالة الاجتماعية، والتنفيس عن الفئات المكروبة نتيجة الكوارث التي تصيب هذه الطبقات الدنيا من المجتمع،وإذا تمعّنا الأمر نجد أن العصر المرابطي قد عرف الأزمات والمجاعات والأوبئة والكوارث والمحن وغلاء المواد الغذائية وانتشار الجراد والأوبئة؛ وهو ما حدثتنا عنه الفتاوى والنوازل المعاصرة للمرابطين كفتاوى ابن الحاج الشهيد، أو نوازل ابن رشد الجد ومن قبلهم نوازل ابن سهل وأحكام الشعبي المالقي، وهي من النوازل التي أرَّخت لعصر المرابطين بصورة تلقائية من خلال معالجتها لظروف الناس ومشكلات عصرهم في جميع مظاهر حياتهم وأخلاقهم، ولم تعدم هذه النصوص الخطية معالجة قضايا الفلاحة ووضعية المزارعين.كما لم تهمل كتب الطب ظروفهم الاجتماعية من غذاء ولباس وأمراض وطواعين تصيب أهل الريف خاصة، كما لم تهمل ظاهرة العدوى قبل أن تكشف الجراثيم وهو ما أشار إليه ابن الخطيب إشارات دالة على وعي صحّي متقدم[1].

تكون قطاع المهمشين من المتسولين والعاطلين واللصوص والشحاذين والمهرجين والسحرة والدعرة والمرضى والعاهرات، والمساجين وغير ذلك من الشرائح الاجتماعية غير المنتجة التي عجزت السلطة عن استيعابهم، وإدماجهم داخل المجتمع.وينتمي هذا القطاع في الغالب إلى أصول إجتماعية

[1] الرازي، منافع الأغذية ودفع مضارها، ص:267. ابن خلدون، المقدمة، ص:490 وما بعدها.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين"،ص:255. فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص:159.عبد الواحد ذنون طه، كتب الفتاوى مصدرًا للتاريخ الأندلسي، ص:97.

فقيرة ومظلومة نشأت عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها المجتمع المرابطي، واستفحال الفوارق الطبقية، وازدياد حركة البذخ والترف في المرحلة الثانية من عصر المرابطين وما تمخض عن ذلك كله من غلاء فاحش كما سبق أن نبهنا إليه في أكثر من مرة وتعد كتب المناقب والتصوف والحسبة من أهم المصادر التي تمد الباحث بمعلومات عن المتسولين، ولو أنها جاءت مبعثرة، مما أثار انتباه ابن عبدون الإشبيلي المعاصر للحقبة المرابطية بالأندلس، وجرت العادة لدى بعض متسولة الأندلس أن يقوموا بجولات في الطرقات، وينشدوا مقاطع من الأغاني الشعبية أو الزجل كسبًا لعطف ورحمة المارة، غير أن ابن سعيد يؤكد أن عددهم ظل ضئيلا في الأندلس بحجة أن عادة الأندلسيين إذا رأوا شخصًا صحيحًا قادرًا على الخدمة يطلب سبُّوه، وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه وهذا أمر محمودكما ذهب إلى ذلك ولكنه دليل على مبلغ حرصهم على المال بالنسبة للمشارقة[1]، غير أن الواقع يثبت أن عددهم تكاثر في الحقبة المرابطية[2].

تجدر الملاحظة أن الأراضي الزراعية بالمغرب والأندلس عانت من الكوارث والمسغبات وتأثرت الرعية بالمجاعات وانتشار الجراد بالأندلس خلال عصر المرابطين، لهذا رأينا أن نختم هذا الفصل بنص لابن الحاج الشهيد مبرزًا حالة الفلاحة والمزارعة وتنظيم السقي وما يتبعها من خلاف حول تقسيم الماء بين المزارعين وخصومات انتقال الملكيات الزراعية إلى الورثة.ومن الإنصاف القول بأن السياسة المائية عرفت تطورًا ملموسًا على

---

[1] غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، ص:268.

[2] بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص:189. بوتشيش، الجوانب الخفية في حركة التصوف وكرامات الأولياء بالمغرب(العصر المرابطي-الموحدي نموذجًا)(الإسلام السرّي في المغرب العربي) ص:145.بوتشيش، واقع الأزمة والخطاب"الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات، ص:33.

يد المرابطين، فعلى الرغم من قلة خبرتهم في الميدان الزراعي-باعتبارهم كانوا رُحَّلاً قبل تأسيس دولتهم-فإنهم طوروا وسائل الري.فقد تم استدعاء المهندس الأندلسي عبد الله بن يونس لرئاسة المشروع الذي استهدف إيصال الماء إلى العاصمة مراكش لسقي بساتينها وبحائرها، وبالفعل فإن هذا المهندس الأندلسي ابتكر طريقة هندسية بديعة جعلت الماء يرتفع من منخفض الأرض إلى أعلاها بغير روافع[1] كما استفاد الفلاحون من مياه أنهار الأندلس إلا أن النزاع حوله كان مشهودًا كما تشير نوازل ابن سهل وابن الحاج وابن رشد الجد.

وتسهم نصوص الفتاوى في تقديم معلومات عن حكم أرض الأندلس، وهل افتتحت عنوة أم صلحًا، ويأتي في طليعة هذه النصوص نص عبد الملك بن حبيب الذي يشير إلى أن أكثر البلاد الأندلسية افتتح عنوةً، ولكنَّ نصوصًا أخرى ترجع بالمسألة إلى عدم إمكانية الجزم القاطع، من ذلك مثلا ما ورد في جواب القاضي عياض قاضي المرابطين بسبتة والأندلس على إحدى مسائل أحباس النصارى في الأندلس، والذي يشير إلى"...أن الفقهاء أصحاب التاريخ والخبر يذكرون أن الأندلس منها عنوة ومنها صلح، وأكثر أموال هؤلاء المعاهدين إنما هي فيما ذكر أنه كان عنوة، لكني أقول هؤلاء النصارى لما أشكل الأمر فيهم، وفيما وجد بأيديهم من الأموال وجب كون ما بأيديهم من الأموال بحكم وضع اليد وصحة الحوز الذي لم يجئ ما يزيله ولا قامت حجة تبطله"[2].

---

[1] بولقطيب، الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي، ص:61.

*Lagardère,Campagnes et paysans d'Al-Andalus,P:260.*

[2] برتشيش، المشكل القانوني للملكية العقارية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى مطلع القرن الرابع الهجري(مجلة البحث العلمي)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد رقم:36، الرباط، 1986م.ص:245.نقل الباحث "بوتشيش" النص الخاص بابن حبيب حول أرض الأندلس عن عباس بن

ولعل ما يشفع لنا في العودة للتذكير بأهمية المصادر الدفينة(النوازل، وكتب الفقه المخطوطة) هو محاولة استدرار نصوصها الخاصة بالبادية وتوظيفها توظيفًا صحيحًا للرد على مقولات المدرسة الغربية التي روجت إلى فقر الغرب الإسلامي من الوثائق، فروجت لأفكار سيئة حول الريف والقبيلة والزراعة.وتتميز مصداقية الفتاوى في هذا العصر(فتاوى ابن سهل والشعبي المالقي ابن رشد الجد،وفتاوى ابن الحاج الشهيد وابن زكون؛ من خلال صدقها ومنهجيتها في تسجيل نوازل العصر، حيث بينت سيادة الملكية الفردية والجماعية معًا للأرض وطرق ومصادر تملكها والنزاعات التي قامت بشأنها[1].

**(و)- نوازل ابن الحاج الشهيد (تـ 529 هـ/ 1135م) ونوازل العصر.**

**ومسائل المياه والجنات والمنيات وملكية الأرض خلال الحقبة المرابطية.**

أشاد الباحث المغربي الجاد إبراهيم القادري بوتشيش بنوازل ابن الحاج الشهيد وقيمتها في إعادة النظر في تاريخ المرحلة المدروسة على أساس ما قدمه من دراسات تخص الزواج والطلاق والمتسولين والفقراء والمعوزين والملكية العقارية.ومن الدراسات الهامة دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية

---

إبراهيم(من رجال القرن الرابع عشر الهجري)، **الإمتاع في أحكام الإقطاع**،مخطوط رصيد المكتبة العامة للوثائق بالرباط رقم:*13 D* ورقة 6.عبد الواحد طه ذنون،**كتب الفتاوى مصدرًا للتاريخ الأندلسي**، ص:106. الداودي أبو جعفر أحمد بن نصر(ت.402هـ/1012م)،**كتاب الأموال**، ص:70.محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ص:11.

[1] نوازل ابن الحاج، ص:55.بوتشيش، مخطوط "نوازل ابن الحاج"(**إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**)ص:32-44.محمد المنوني، **الكتابة التاريخية عند العرب**، ص:59 وما بعدها. بوتشيش، **واقع الأزمة والخطاب"الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات(الإسطوغرافيا والأزمة)**ص:40 وما بعدها.

على غرار هذه الوثائق الخطية الدفينة لمعرفة تطور المجتمع وعلاقة فئاته بالسلطة المرابطية.

وعلى ما في المخطوط من معلومات تبشر بفتح جديد في حياة الدولة المرابطية، فإن فك خطوطها وقراءة نصوصها من الصعوبة بمكان.وسأقتصر في آخر هذا العنصر على عرض حوصلة لمسائل المياه والمساقاة التي تناولتها نوازل ابن الحاج ،والتي نظمت شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، كما تبرز وضع المنيات والجنات والبساتين في الأندلس ووضعية الأرض بها على أيام المرابطين.ولاحظ الدارسون أن مراكز الاستقرار المرابطي منذ بداية حكم علي بن يوسف قد عانت كثيرًا، فأثرت على أوضاع الملاك والزراع، وقلة المجابي دلالة ومظهرًا لانحسار أراضي الزراع أو التهرب من دفع الضرائب غير أن استخدام الجيش في الجباية ترك الزراع بين أمرين:ترك ما يزرعون أو الثورة على الدولة القائمة، أو الأمرين معًا، وهذا الخيار الأخير هو ما فعله المصامدة في البلاد الغربية، أما في البلاد الأندلسية فقد كانت الثورات، ثورات ملاك فقهاء؛ ففي صراعهم على السلطة والانفراد بها سعوا إلى التعاون مع نصارى أسبانيا الذين أعانوهم لقاء مال التزم به الثائر المسلم، وحتى يستطيع الثائر المسلم أن يدفع جزية النصارى الأسبان التي فرضت عليه كان يضيق على الرعية، ويتحيفها بأنواع من المظالم وهو ما فعله أحمد بن محمد في أندوجر، ويحيى بن غانية في قرطبة، حيث صالح أبو زكريا يحيى بن غانية المسوفي السليطن(الفونسو السابع) على أن يتنازل له عن بياسة وأعطاه تحفًا كثيرة، ويرسل إليه جزية سنوية، فخرج الصليبيون من قرطبة بعد تسعة أيام من دخولها وقد خربوا الجامع ونهب أوصاله وثريات الفضة عند دخولهم سنة أربعين وخمسائة(540هـ/1146م) ومزقوا المصحف

الإمام[1] ، وكذلك فعل ابن عبد العزيز في بلنسية وابن مردنيش في مرسية، وقد بلغت الضريبة التي دفعها في أربعة أعوام لصاحب برشلونة مائة ألف مثقال حشمية[2].وهو ما أشار إليه ابن رشد الحفيد وهو يؤرخ لمدينة التسلط والاستبداد[3].وإذا حلَّ العسف الجبائي بالمعتمرين، سارع الخراب إلى الأرياف مصدر الجبايات والمكوس.ولم يكن التسلط والاستبداد فقط في عصر ملوك الطوائف الثاني فالأدهى والأمر عمالة سيف الدولة بن هود، حيث كان عميلا لألفونسو- ملك أراغون-، يحرضه ضد المسلمين،ويستخدمه أداة ضدهم، وفي إشاعة الفرقة بينهم،وانتزع ما يستطيع من أراضيهم، وكان ملك قشتالة يعاونه بالمال والجند، لأن الاضطراب في الأندلس يحقق لملك

(1) ابن غالب الأندلسي، فرحة الأنفس ص:299.ابن الأبار، الحلة السيراء، الجزء الثاني،ص:213.هامش رقم:3.مجهول، رسائل ومقامات أندلسية، ص:133.

*Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana;P:773.*
*Mensage(J),Le christianisme en Afrique, Eglise Mozarabes, Esclaves Chrétiens, Alger,1915,P:8.*

(2) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام، ص:260. ابن الخطيب، الإحاطة، الجزء الأول، ص:308.عز الدين عمر أحمد موسى، النشاط الإقتصادي، ص:172.هامش رقم:8.ابن الأبار، الحلة السيراء،ج212/2. ص:259. هشام أبو رميلة، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس،ص:109.

(3) ابن رشد، الضروري في السياسة، فقرة 333 ص:194 وما بعدها. محمد عابد الجابري، ابن رشد سيرة وفكر، ص،26 وما بعدها.ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص:254.ابن حميس، أعلام مالقة، ص:255.عمار طالبي، النظرية السياسية لدى ابن رشد(مؤتمر ابن رشد) الجزء الأول، ص:241.سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص:119.الطيبي، مدينة الأشبونة"لشبونة" الإسلامية(دراسات وبحوث)ص:235.

*Weil (Raymon), de la tyrannie dans la pensée politique grecque de l'époque classique (dictatures et légitimité) sous la la diréction de Maurice Duverger, centre d'Analalyse comparative des systemes politiques,P.U.F.1982.P:29. Francis Wolff, Aristote et la politique(series philosophies),P.U.F. 1991. P:79. D.Francisco Codera, decadencia y desparicion de los Almoravides en espana,.P: 29.*

النصارى أهدافه[1].كما أن نظام السخرة أصبح ظاهرة واضحة في شرق الأندلس كما تشير وثائق العصر، خاصة مع مرحلة ملوك الطوائف الثاني[2].لعل الوحيد من ثوار فترة الانتقال الذي اهتم بالفلاحة وتوسيع نطاقها دون اللجوء إلى فرض ضرائب جديدة هو أحمد بن محمد بن ملحان الطائي في وادي آش وبسطة، فقد استعان بالزراعة لإثراء مورد خزينته تلقب ابن ملحان "بالمستأيد بالله" وحصن القصبة وأخذ بالحزم، ولم يكل أمره إلى غيره واقتنى كثيرًا من المال والذخيرة واستعان على غناه بالفلاحة وإثارة الحرث، فكان أغنى أهل زمانه وظهر على كثير مما يجاور بلده كمدينة بسطة...واستخدم جملة من مشاهير العلم والأدب كأبي بكر بن طفيل وأبي الحكم هردوس[3].

ونجد في كتب الأغذية الطبية الأندلسية معلومات عن النبات مضاره ومنافعه، وتحدث الجغرافيون عن قضايا طبية في غاية الأهمية من خلال

---

(1) انظر المراسلات والتعليق عليها الخاصة بشرق الأندلس في نهاية القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر التي كانت مجال دراسة إميليو مولينا لوبث، والذي يتضمنها **كتاب زواهر الفكر لابن المرابط الأوريولي**(أبو العلاء محمد بن علي)،حيث تشير دراسات المتخصصين إلى حضور ظاهرة السخرة والاستعباد والاستبداد مع الفلاحين وعمال الأرض. د.محمد أحمد أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص:379.تنازل سيف الدولة لألفونسو السابع عن روطة في شهر ذي القعدة عام 534هـ/1141م وبعد موت سيف الدولة في موقعة اللج قرب جنجالة في شرق الأندلس عند بلنسية فأسدل الستار عن دولة بني هود في الثغر الأعلى. المرفي، **دولة المرابطين**، ص:162-163.

*Guichard,Les Musulmans de Valence et la reconquete(XI$^{e}$-XIII$^{e}$ siècles)Tome premier,.P:32*

(2) ابن الخطيب، **الإحاطة، الجزء الأول**، ص:308.عصام الدين الفقي، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص: 264.

***Guichard, les Musulmans de Valence et la reconquete(XI$^{e}$-XIII$^{e}$ siècles)Tome premier , P:82-109.***

(3) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام،القسم الثالث**،ص:264. ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص:152.عز الدين عمر أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي**، ص:173.دندش، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص:417.

وصف منتجات بلاد المغرب والأندلس، ومن أهم انتاج منطقة السوس زيت الأرقان الذي يستخرج من حبات صغيرة يشبه شكلها شكل العبقر، بينما يشبه شجره شجر الكمثري، إلا أنه لا يعادله في ارتفاعه، وزيت الأرقان صحي للغاية،إذ أنه يسخن الكلى ويدر البول[1] وكثيرًا ما نصح به الأطباء وهو إدام أهل السوس، كما كانوا يشربون ماء قصب السكر لتوفر معاصره في زمن المرابطين وكان يصدر إلى الأندلس لتوفر وسائل النقل لأهميته الغذائية؛ ويبدو أن قيمة السكر الذي ينتج في ماسة لم يكن تنحصر في قيمته الغذائية فحسب، وإنما أيضًا في منفعته الطبية[2].

ومن الكتب النادرة في هذا العصر **كتاب الأغذية لعبد الملك بن زهر** الذي ألفه للخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، كما أشار في مقدمة الكتاب[3].كما أن الجانب الفقهي للأرض والأكرية والمغارسة والمساقاة قد نظمت في تشريع فقهي زراعي هام عملت به الدول الإسلامية منذ نشأتها رغم ما ذهب إليه الغربيون بأن القانون التشريعي المعتمد بالأندلس تأثر بالواقع القانوني لأصحاب البلاد من المصالحين[4] قال صاحب المختصر:"لا يجوز أن تكرى الأرض بشئ مما يؤكل ويشرب ولابشيء مما تنبت الأرض إلا الحطب والعود والصندل والشجر ما لم يكن فيه ثمرة"[5].

---

(1) مجهول،كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار،ص:212.

(2) مجهول،كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار،ص:121.و:ص:212.بولقطيب، الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي، ص:65.

(3) أبو مروان عبد الملك بن زهر، كتاب الأغذية، ص:9 .ابن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون،ص:3 وما بعدها.

(4) *Bolens, Agronomes andalous, P:32.*

(5) علي بن عيسى الطليطلي، المختصر، تحقيق، ماريا خوسية ثيربيرا(***Maria josé cervera***)، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الأسبانية للتعاون الدولي،2000م.ص:64.

وقد عكس الشعر النزاع حول السواقي والمياه فهذا الفقيه عبد الوهاب بن قطن من أهل حصن بقنبيل (من أعمال كورة غرناطة) أرسل إلى محمد بن حسون قاضي غرناطة في عصر المرابطين (ت.519هـ/ 1125م) قصيدة يشكو فيها جيرانه أهل حصن الخرائر، لأنهم استحوذوا على عين ماء بقنبيل كانت مقسمة بين الطرفين، ومن قصيدته التي بعث بها إلى القاضي قوله:

| | |
|---|---|
| أقاضـــي المـــسلمين لنـــا حقـــوق | ســـتعلمها وتعلـــم مقتـــضاها |
| لنـــا عـــين مـــاء مقـــسمة علينـــا | ولـــيس لنـــا الحيـــا شـــئ ســـواها |
| لنـــا خمـــس مـــن الأثمـــان منهـــا | وســـائرها الخرائـــر منتهاهـــا |
| ورثناهـــا تراثـــا مـــن قـــديم | فترويـنـــا بـــري مـــن رواهـــا[1] |

لقد طرحت دواوين الفلاحة مجموعة كبيرة من التقنيات والخبرات الزراعية قمينة بأن تجد الحلول التقنية والعلمية للنظام الزراعي المرابطي بالأندلس، وقد نبه الحاج الطغنري في نزهة الأذهان الفلاحين وعلماء الفلاحة إلى أهمية اتخاذ الاحتياطات الواجبة في هذه الصنعة، ومن أهم القضايا الفلاحية المطروحة اختيار الأرض الزراعية المناسبة لكل غرس فاختيار أرض الكرم تبدأ بالأرض الحمراء المحجرة، وبعدها الأرض البيضاء المحجرة، والأرض السوداء إذا نسقت لا توافق هذه الأرض الكروم، فإن الشمس والهواء الحار يدل على تلك الشقات؟، كما أن تقنيات التركيب

---

[1] ابن الزبير ، صلة الصلة، نشر ليفي بروفنسال، ص:26-27 رقم:38. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين،ص:114. نوازل ابن الحاج، ص:215.

الاصطناعي لها تجربتها الأندلسية في عهد المرابطين، حيث ينظر في تدبير التركيب حتى لا يخفى سره على منتحله، لأنه عمل يحتاج إلى اتساع في نظر ومهلة في تدبير، فهو علم يبعد ولا يقرب إلا بعد البحث عليه والكشف عن علله لأن الأغراض الداخلة عليه كثيرة حدًا، والتركيب عند الطغنري هو صلاح الأشجار وجمال البساتين ويلقي الحاج الطغنري باللائمة على أهل عصره لجهلهم بأصول الغراسة، وإصلاح الأرض[1].وهو من الأدلة الكافية على قلة الإنتاج الزراعي، رغم الخبرة المكتسبة طيلة قرون، ويذهب أحدهم في تفسيره لتغريب نصارى غرناطة إلى العامل الاقتصادي، واستدل إلى أن حملات ألفونسو المحارب كانت غايتها تهجير آلاف الأسر المستعربة لتعمير طليطلة والاستفادة من خبرتهم الزراعية لتنمية المناطق المسيحية في الشمال، يضاف إلى هذا التفسير الهام ما تميزت به غرناطة من كثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون وأنواع الفواكه، فمما لا جدال فيه حسب ما ذهب إليه **إبراهيم القادري بوتشيش**[2] إنَّ إبعاد العنصر المسيحي هدف إلى قطع أحلام ألفونسو بمعاودة الهجوم على مدينة بهذا الحجم من الأهمية الاقتصادية والحيلولة دون هجرة الأيادي العاملة

---

[1] الطغنري، زهرة البستان، مخطوط الجزائر، ورقة: 51 ظهر.

[2] هل حقيقة أن نمط الإنتاج الإقطاعي هو حجر الزاوية في تشكيل البناء الاقتصادي للعالم الإسلامي كما ذهب إلى ذلك د.محمود إسماعيل وتلميذه د.إبراهيم القادري بوتشيش، حيث تتكرر مصطلحات الإقطاع العسكري في الأندلس ونظامها الاقتصادي إلى منتصف القرن الرابع الهجري، وهل تكرر نفس النموذج في عهد المرابطين مع حظور ما يعرف بإقطاع الولاة من الأسر اللمتونية الحاكمة، موضوع جدير بالدراسة:انظر:

محمود إسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي(طور الانهيار(2)**،ص:110.إبراهيم القادري بوتشيش، **أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي(من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة**، ص:48. بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس**، ص:80.

*Claudio Sanchez Albornoz y Menduina,En torno a los origenes del feudalismo, Tomo II,Con una extensa Addenda,Editorial Universidada de Buenos Aires.1977.PP:193-211.*

لتعمير المناطق الفارغة التي استردتها القوى النصرانية، وعدم حرمان بيت المال من موارد هامة تتجلى في الجزية التي كانت تؤديها قبل ذلك عشرة آلاف عائلة مسيحية خلال حملته المشهورة، حملها معه إلى أراغون، ولعل هذا ما أغضب الحكم المرابطي وجعله يقوم بترحيل معاهدة غرناطة لمنع تكرار هذه العملية، كما أن الهدف من وراء ذلك استغلال خبرة المستعربين وتنمية الأراضي الزراعية، وجلب الأيدي العاملة الماهرة نحو المغرب الأقصى[1] فهل ما طرحه بعض الدارسين أن الصراع القائم بالغرب الإسلامي في عهد الطوائف والمرابطين بينهم وبين الممالك النصرانية لسيطرة النظم الإقطاعية بالغرب الإسلامي، وبما أن الأرض الزراعية هي محور الصراع فهل حقيقة أن الصراعات العسكرية التي توالت على الغرب الإسلامي نتيجة للأنظمة الإقطاعية القائمة بين الإقطاع الإسلامي والبورجوازية الأوروبية الناشئة، دليلنا على ذلك ما أسفر على ذلك المكاسب البشرية والمالية والعقارية (الأرض الزراعية خاصة)،وأن النصر في كل الأحوال ارتهن بالقدرة على تجييش الجيوش[2] كما أن اقتصادها كان نَهبِيًا تَوَسُّعِيًا كما سمّاه الباحث بوتشيش بحقٍ اقتصاد المغازي[3] كما يقول أيضًا محمود إسماعيل ويؤيد طرحه[4] وهو الذي يصف الدولة المرابطية بأنها " جعلت أرزاقها في

---

[1] بوتشيش، مباحث، ص:80.انظر وجهة نظر المستعرب الأسباني فرنانسيكو كـ ديرا.

*D.Francisco Codera, ι ɜcadencia y desparicion de los Almoravides en espana,P:208.*

[2] محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الجزء الثالث(طور الانهيار) القسم الأول(الخلفية السوسيو–تاريخية)، ص:166. الفضل شلق، الخراج والاقطاع والدولة(مجلة الاجتهاد)بيروت،المجلد الأول،1988م. ص ص:115–192. الطرسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في المُلك، ص:32.

*Cahen, L'évolution de l'Iqta' du XI^ème au XIII^ème.S ,P:25-52.*

[3] بوتشيش، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين،ص:300.

[4] محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الجزء الثالث(طور الانهيار) القسم الأول(الخلفية السوسيو–تاريخية)، ص:166.

رماحها[1].لأن نظام اقتصاد المغازي السائد المستوحى من نمط خلدوني، يتميز كما ذهب إلى ذلك بوتشيش من مغانم الحروب والضرائب والمصادرات، كما أنه يتميز بدورانه في حلقة مفرغة لا تنزع إلى النمو[2]،كما أن نمط ملكية الأرض في عهدهم قد استحوذ عليها أمراء البيت اللمتوني والكتاب والوزراء والبيوتات الكبرى[3]، وفي هذا يقول الطرطوشي المعاصر للحقبة مدار الدراسة: "ما زال أهل الأندلس ظاهرين على عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها، ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يُربي التاجر تجارته.وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والأجناد متوافرين،والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد، وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها، ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها الملثمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم[4].

---

[1] نفسه، ص:166.

[2] بوتشيش،الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الجزء الأول، ص:191 وما بعدها. دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص:156 وما بعدها.

[3] محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الجزء الثالث(طور الانهيار) القسم الأول(الخلفية السوسيو-تاريخية)،ص:126.بوتشيش، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الجزء الأول، ص:141-143.بوتشيش، الطبقة في الغرب الإسلامي،(تاريخ الغرب الإسلامي)ص:11.

[4] الطرطوشي، سراج الملوك،ص:229.راجع نظام الإقطاع العسكري في الأندلس إلى غاية المنصور ابن أبي عامر: أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية الفصل الخامس(دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية)تأليف مشترك)، الكويت، منشورات ذات السلاسل،1405هـ/1985م.ص:386 وما بعدها. أحمد مختار العبادي، الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي (بحوث ندوة الأندلس-الدرس والتاريخ-) ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،1994م.ص:112.أحمد مختار العبادي، الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي(ندوة الأندلس)ص:111.

وهذا معناه أن النظام المالي والتجاري والزراعي الأندلسي في أمس الحاجة إلى إعادة نظر في الفرضيات التي تقول: إنَّ انهيار الدولة المرابطية مرده إلى نظامها الإقطاعي العسكري.

لقد حاز التجار على أموال كبيرة من الشركات وملكية العقارات، كما حاز اليهود في هذا العصر على أموال طائلة باحتكارهم للتجارة الدولية.وأما ملكية الأرض معرض حديثنا في هذا العنصر فقد أسفرت نوازل العصر عن التفاوت الطبقي في مجتمع المرابطين بالأندلس خاصة في الحواضر الكبرى،حيث لا يختلف الريف الأندلسي عن ريف العدوة في أنه منطقة منسية[1].ولهذا فإن فك الحصار على الطبقات المعدمة[2] دون النظر إلى تاريخ الأندلس من خلال التصنيف الاجتماعي الذي لا تحدده سوى البنية الاقتصادية نفسها، وليس من منظور عصبي طائفي كما ذهب إلى ذلك العديد من الدارسين من خلال الصراع بين العرب والمولدين والبربر واليهود والمستعربين، وبناء على النمط الاجتماعي السائد في عصر المرابطين، الذي يحدده بعض الدارسين بطبقات ثلاثة، الطبقة الأرستقراطية مالكة البلاد والأرض وتضم أمراء البيت اللمتوني وجهاز فقهاء السلطان، والشريحة العسكرية الظاهرة من قادة الجند النظامي، والعائلات الوجيهة والعالمة والتي ورثت الخطط الإدارية والقضائية، ثم طبقة البورجوازية الأندلسية من التجار والسماسرة وأصحاب الشركات، وهم التجار وأصحاب الكتابة واليهود والمستعربون وأعوان الدولة وأصحاب المهن الحرة كالأطباء دون إغفال

---

[1] بوتشيش،الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الجزء الثاني، ص:621.

[2] بوتشيش، تجديد التاريخ الإسلامي: كيف ومن أين يبدأ؟(مجلة الاجتهاد) العدد الثاني والعشرون، السنة السادسة، بيروت، دار الاجتهاد، شتاء، 1414هـ/1994م. ص:132 وما بعدها.

الشعراء وأهل الحكمة من المرموقين الذين وصلوا إلى السلطة.وفي آخر الهرم الاجتماعي، العوام والعبيد من جميع الأصناف[1].

وإذا خبرنا النصوص الخاصة بالفقهاء فإن المصادر تحدد أملاكهم وأسباب ثراءهم ومنياتهم وطريقة بناء مساكنهم ولباسهم وما يملكون من جاه وسلطان، لهذا نتساءل في آخر هذا العنصر، هل حققت الزراعة بتقنياتها رفاهية المعدومين،والسواد الأعظم من المزارعين الذين نَظَّرَ لهم وسجل لهم أصحاب الدواوين الفلاحية طرق الزراعة وتقنيات الغرس والزبر والتركيب والاعتناء بالبساتين؟وكيف تحول بدو الصحراء من حياة الرعي والرحلة والترحال إلى مجتمع يعتمد الزراعة السقوية نموذجًا لاقتصاد جديد مستقر، حيث توسعت في هذه الفترة تقنيات الري التي واكبت مسيرة الحضارة الإسلامية، وسمحت في هذه الحالة في القرن الثاني عشر من زيادة مساحة الأراضي المزروعة بجميع أنواع المحاصيل التي استقرت في غرب العالم الإسلامي كما تمكنوا من فتح الطرق التجارية التي كانت تسيطر عليها القبائل الهلالية[104] هذا ما يفوق موضوع العلوم الطبيعية عامة كعلم وممارسة وقد نجيب على هذه الإشكالية في أبحاث أخرى.ولكن ما يمكن استخلاصه أن الاقتصاد الأندلسي إلى غاية قدوم المرابطين إلى الأندلس؛ حيث كانت المنطقة بإمكانها تمويل شبه جزيرة إيبيريا بالمنتجات الزراعية والصناعات الخاصة بالرفاهية إلا أن سياسة الابتزاز الذي سير مسار العلاقات بين ملوك الطوائف والممالك النصرانية الشمالية هو الذي غير وجه الأندلس،وهي قطعة من الجنة وأرض المعاد كما عبر بيدرو شالميتا

[1] تبدو ملاحم مجتمع الأندلس في عصر المرابطين شبيهة تقريبًا بالظروف والفيئات الاجتماعية في الأندلس الأموية إلى قيام الخلافة (316هـ/) فهل لم تتغير أنماط الانتاج أم أن التغيرات التي حدثت هي تغير العصبيات والقوى السياسية والعسكرية انظر: بوتشيش، **أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس**، ص:143.نقلا عن محمد حناوي(مراجع).

صاحب الدراسة القيمة عن صاحب السوق في الأندلس[1]، وبمجيء المرابطين تحولت غالبية المناطق إلى ساحات للسجال والحروب،فمن الطبيعي أن تتغير سياسة الغرس والفلح، وبالتالي كان القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي قرن التحولات الكبرى في كل المستويات ومن أهم قضاياه الكبرى في هذا العنصر مسائل المياه والفلح[2].

ونختم هذه المحاولة فنقول انطلاقًا من مقولة مارشال هودجسون (*Marshall G.S.Hodgson*)، في كتابه البارزْمغامرة الإسلام[3]، الذي يعد أنجح المحاولات المبذولة لدراسة الحضارة الإسلامية في سياقها العالمي، كان المجتمع الإسلامي -الذي ينتمي إليه جيل المرابطين خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر-بالتأكيد أكثر المجتمعات امتدادًا وتأثيرًا في العالم، وأكثر المجتمعات مدنية واستقرارًا وبالطبع كانت المدنية تعني التجارة والثقافة

---

[1] ريتشارد إيتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي(مجلة الإجتهاد)، العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، بيروت،دارالإجتهاد، شتاء وربيع العام 1415هـ/1995م.ص:210.

محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، الجزء الأول، ص:9.

[2] بدرو شلميطا، صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، ترجمة مصطفى الرقي،(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الثاني، ص:1060. بوتشيش، الإنتاج الصناعي في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين(إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي)ص:84-97.ص:91.

[3] انظر حول الموضوع: نص نازلة مما ذكرنا: "الجواب رضي الله عنك في عين ماء أجراها الله تعالى من غير إنشاء مخلوق لها اقتطع منها قوم جزءًا كبيرًا وأجروه في ساقية على أرض غيرهم، واقتسموا ماء الساقية المذكورة بين دورهم ليشربوا منه ثم أن من كان فوقهم ممن حفرت الساقية في أرضه بنى في أرضه دارًا وأراد أن يزيد من ماء تلك الساقية شيئًا ينتفع به، هل لأهل الدور التي تحته منعه من ذلك أم لا؟بيِّن لنا الجواب في ذلك موفقًا إن شاء الله وبالله التوفيق. انظر: "نوازل ابن الحاج،ص:147.بوتشيش، العلاقات الإنتاجية بين المزارعين وأرباب الأرضي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري ق12م)(إضاءات حول تاريخ الغرب الإسلامي)،ص:77-83.

والزراعة التي شارك فيها المجتمع الأندلسي بباع طويل وجابوا الآفاق ووصلوا إلى أقصى حدود الدنيا في رحلاتهم التجارية والحجية والعلمية[1].

لقد اكتفينا بهذه النماذج من النصوص التي تعكس صورًا واضحة في المجال الفلاحي بالأندلس ولا يسمح المجال إلى عرض كل النصوص، واكتفينا بهذه الصورة الشاملة حتى تتبين من حصادها أهمية كتاب "نوازل ابن الحاج الشهيد" كوثيقة خطية عظيمة الأهمية في تاريخ الريف يمكن أن تُستخدم نصوصه في تغطية الجوانب المسكوت عنها في الحوليات التاريخية، وقراءة حالة الفلاحة لتتم لنا بقية أوجه الصورة حول عنصر هام من عناصرالعلوم الطبيعية بالأندلس في عصر المرابطين[2].

وخلاصة القول:إن العرب المسلمين قد سجلوا نتائجهم في كتب عديدة تمثل مجموعة رائعة من آثار البحث العلمي، فمنها ا كان ميل نو الوجهة العلمية التطبيقية،فيعرف الناس بالطرق التقنية الواجب اتباعها واستخدامها لضمان الخص والزيادة في الانتاج وتحسين المستغلات كما ونوعًا وخزن الثمار الناتجة عن والحفا عليها من التع والفساد... ومنها ما توجه وجهة تطيقية ثانية تتمثل في درس خواص النباتات الطبيعية وتجربتها، معتمدًا على المشاهدة الحسية والتجربة المادية، مدققا مدى صلاحيتها والمقادير الواجب

[1] شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، بيروت، 1991م.ص:109-132.إبراهيم القادري بوتشيش، أقواس مفتوحة حول كتاب"الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ (عن تجربة قراء ابن خلدون لسالم حميش) ص:96.

*Marshall.G.S.Hodgson, The venture Of Islam:Conscience and History in a World civilization ; 3Vols(Chicago,Ill.:University of Chicago Press,1974) Vol,2.P:3.*
*Marshall.G.S.Hodgson,L'Islam dans l'histoire mondiale,textes réunis,traduits de l'américain et préfacés par Abdesselam Cheddadi, Paris, Sindbab actes Sud.Février.1998.P:104.*

[2] شارل عيساوي، أوروبا والمشرق وتحولات القوة، نظرة في رؤية مارشال هودجسون(مجلة الاجتهاد)، ص:118.أحمد مختار العبادي، الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي، ص:107-129.

استعماله لإلاح الأبدان ومعالجة الأدواء[1]. ومنها ما توجه وجهة علم طريفة فدقق في وصف النباتات وتعرف على ذواتها ومنابتها ووصف سوقها وأوراقها وجذورها وأزهارها وثمارها وبذورها، وآلت البحوث إلى التصنيف في عالم النبات وخصائصه، وقد أدرك العلماء أهمية هذه المرحلة التي لم تعرفها أوروبا إلا في مطلع القرن السادس عشر، وفي هذا الشأن نلاحظ أن أول تصنيف ظهر بأوروبا كتاب دي بلانتيس(*De Plantis*) من تحريرأندريا سيسلفينو(*Andrea Cesalfino*) الإيطالي حوالي عام 1524م ونشر بفلورنسا عام 1563م.إن تراث المسلمين في هذا الميدان جد حيوي، وهو ميدان الزراعة والري[2].

---

[1] "نوازل ابن الحاج"،ص:103.بوتشيش، مخطوط"نوازل ابن الحاج"(إضاءات حول تاريخ الغرب الإسلامي)،ص:41.انظر:الملحق:9.من أطروحتنا للدكتوراه، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد الثاني.ص:698.

[2] د.محمد سويسي، نماذج من التراث العلمي العربي، ص:208.



# الرباط والمرابطة ونظام الرهبانية والديرية المسيحية (دراسة تاريخية مقارنة)(*).

(*) هذه الدراسة تلخيص لعمل كنا قد عالجناه ضمن رسالتنا للماجستير انظر: محمد الأمين بلغيث، الرُّبُط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، نوقشت في 29 سبتمبر 1987م بالجامعة المركزية.

## المدخل العام

حينما تذكر المصادر أن ثغور المسلمين من الإسكندرية إلى سبتة محمية بسلسلة من الرباطات والمحارس والقلاع الكثيرة يفهم من هذا أن هذه المؤسسات ذات طابع عسكري دفاعي، ومن المعلوم أن وسائل الدفاع في العصور الوسطى تعتمد على أهمية الأبراج ومتانة الأسوار وكثرة المعاقل وهي ظاهرة دفاعية تدخل ضمن الهندسة والعمارة الحربية[1].

وقد أقام المرابطون حصونهم في المواقع التي تحيط بها الجبال من جميع الجهات لهذا كانت تطور الهندسة المعمارية العسكرية في عصري المرابطين والموحدين واضحة المعالم[2].

ومن بين الرباطات الواضحة المعالم في هندستها العسكرية رباط سوسة الذي اعتنى به أكثر من أمير أغلبي لهذا فإن الدراسة لأهم خصائصه المعمارية تعطينا نموذجا واضحا للرباطات المغربية، والرباط يوجد في الجزء السفلي من المدينة وسط الأسوار مما يجعله قليل الأهمية من الناحية الإستراتيجية غير أنه في الظاهر شيد في وقت لم تكن هذه الأسوار موجودة فرباط سوسة يتكون من سور مستطيل وفي جوانبه ووسطه قلاع،كما توجد أسوار ونتوءات مجهزة في القمة بسلسلة من الأقواس مشكلة بذلك إفريزا[3] وست من هذه الحصون دائرية ، وفي الزاوية الجنوبية الغربية يوجد نتوء مربع

---

(1) نظر : *G.Marçais, l'architecture musulmane d'occident (Tunisie Algérie Espagne Sicile) Editeur arts et Graphique Paris 1954 P 156*

(2) السيد عبد العزيز، المغرب الكبير (العصر الإسلامي)دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، موسوعة تاريخ المغرب الكبير، بيروت، دار النهضة العربية، 1981م.،ص:764.

(3) أنظر : *Marçais, l'architecture musulmane P: 30.*

يجعل القلعة أسطوانية على بعد 15م تحيط به سطوح تحتوي على منارة ذات قبة،ويوجد نتوء مربع آخر في وسط الجهة الجنوبية يحتوي على المدخل الوحيد للرباط وهناك سلم ينحدر من الباب إلى الداخل ينتهي إلى الساحة التي تشغل مركز البناء كما توجد أروقة تحيط بهذه الساحة تؤدي إلى الطابق الأول وغطي رواقان من هذه الأروقة بقيت نصف أسطوانية أما الرواقان الآخران،فقد جهزا بدون شك في عصر أقدم بقباب ذات زاوية بارزة تنفتح هذه الأروقة على حجرات تفتقد للنوافذ وهي على شكل قباب نصف أسطوانية كما تنفتح على حجرات للوضوء[1] أما الطابق الثاني فتوجد به حجرات تحيط بالساحة من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة الجنوبية فتوجد بها قاعة الصلاة وأحد عشر جناحا ورواقان ،وهناك محراب صغيربسيط يمتد على طول الجدار الذي هو جدار القبلة، الذي يعتبر متراس المعقل والذي يحتوي على ثغور تشكل مرمى النبال، وهذه الطريقة والظاهرة تعبّر بصورة مدهشة عن الطبيعة المزدوجة للرّباط إذ أنه يلعب دورين في نفس الوقت، دورا دينيا وعسكريا، كما يبرز موضع المحراب في الخارج على شكل قبّة تعلو حجرات على السطح، وهذه المعاقل الكبيرة أو المساجد الكبيرة كما يقول (مارسي ***Marçais***) تشبه أضرحة المرابطين(الصُّلاّح والعُبَّاد) مما أعطاها قداسة روحية[2] وربما كان برج المراقبة الذي يرتفع في الزّاوية المجاورة للقبلة يصلح لأداء الأذان، فنحن نعلم أن المسجد المجاور لا يحتوي على منارة وأسلوب البناء يعبر عن بساطة وتقشف في العمارة يّوافق إيمان هؤلاء المجاهدين ويعكس عقلية الأمة الإسلامية. وأصبحت سوسة بفضل هذا الرباط دار جهاد ورباطها من روائع العمارة الحربية في الثغور المغربية وعلى

---

(1) نظر: *Ibid P: 31.*

(2) نظر: *Marçais, l'architecture musulmane P: 31.*

نفس الهيئة وبنفس التصميم المعماري تقريبا لرباط سوسة نجد رباط المنستير[1].

ورباط سوسة يعبّر عن صورة كتاب مفتوح في الهندسة الحربية الإسلامية ببلاد المغرب[2] ومن خلال تصميم رباط سوسة تتوفر شروط الحياة بشكل يعبر عن عبقرية في تحكم العقلية الإسلامية في الفن المعماري، فهناك غرفة النّوم الخاصة بالمنقطعين والمرابطين، والإنارة تكون عن طريق مصابيح زيتية، وأما الماء الخاص بالشّرب والطّهي والوضوء، فمصدره تحت السلم المؤدي إلى الرّباط فبمائه تنظف وتطهر حاجات سكانه ومنه تورد الخيول المعدّة للجاهد، وأما المؤن والأسلحة الخاصة بالاحتياط فإنها توجد بالغرف الموجودة بجنوب الرّباط، وأما اتّساع الرّباط فحسب الباحث (لوزين *Lezine*) فإنه لا يتجاوز استيعابه لخمسين مرابطا باستطاعتهم صد الهجومات المفاجئة وهو ما يعطينا فكرة عن الرباط في نهاية القرن الثامن الميلادي[3].

ورغم فقدان الرباط الأهمية الحربية بعد إقامة أسوار سوسة فإنه عرف تطورات عمرانية جديدة خاصة بعد تأسيس المسجد، كما تعرض للحريق أثناء ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد؛ وفي القرن الخامس الهجري ، بقي شامخا أمام تخريب الأعراب لمدينة سوسة، ويبدو أن الرباط في صورته المعمارية الحالية لا يعبر عن صورة الرباط الأغلبي البسيط لأنه في القرن الماضي أجريت عليه إصلاحات كثيرة[4] وهذا بعد أن كان مدرسة في القرن الثامن عشر الميلادي بحيث أن الإصلاحات والتعديلات المعمارية التي

---

(1) أنظر: Ibid P: 32.

(2) أنظر: *A .Lezine, Le Ribat de Sousse , P: 23.*

(3) أنظر: *Ibid, P: 24.*

(4) أنظر: *Ibid P: 22.*

أدخلت عليه أعطته صوزة فنية رائعة حتى أصبح لوحة معمارية تجمع بين صفات كل خصائص العمارة الحربية في العصور الوسطى[1].وبلا شك أن هذا الرباط المزود ببرج للإشارات الضوئية يعمل على تحقيق أمن سوسة.ومن ناحية التصميم المعماري بإفريقية أيضا رباط المنستير الذي هو الأثر الوحيد الذي بقي على هيئته الأصلية وهو أقدم المعالم المؤرخة في إفريقية(المغرب الأدنى) وهو يمثل النموذج الأول المدروس لدور إقامة المرابطين التي خططت أيام الرشيد وأُحْضِرَ مثاله إلى إفريقية وأقيمت الرباطات الأغلبية طيلة القرن الثالث للهجرة على نسقه إذ أن أصوله المعمارية وتأثيره على عمارة الرباطات في العصر الأغلبي واضحة في الساحل الإفريقي.

(و يتكون مخطط هذا الرباط (المرقب) من حصن صغير مربع تقريبا[2] أضلاعه 32،80م × 32،40م، تقوم في زواياه أبراج دائرية في مستوى سطح القصر منارة أسطوانية....وقد قسم سطحها الخارجي بثلاث أفاريز بارزة بسيطة ويصعد إليها من مدخل يفتح على سطح مسجد القصر يؤدي إلى سلم دائري يشتمل 89 مرقاة وتتسرب إليه الإضاءة من كوى صغيرة موزعة على ارتفاعات متباعدة)[3] وبدوره الأرضي غرف صغيرة مقببة تصطف على أسواره الأربعة يتقدمها رواق يفتح على الحصن عدا مجموعة جدار المدخل القبلية فإنه يتقدمها رواقان وعلى هذا الجانب من الدور الأرضي مسجد يقع محرابه فوق المدخل ويبدو أن زيادة قد ظهرت

---

(1) عن مواد بناء رباط سوسة بالتفصيل راجع لوزين :

*A Lezine, Le Ribat de Sousse suivi de notes sur le ribat de Manastir, imprimerie la rapide ,Tunis.1956.P.26*

(2) د.إبراهيم شبوح، **حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية**، المكتبة الوطنية بتونس رقم:95/ ع4(فصلة من دراسة طويلة)،ص: 06.

(3) انظر : مُخططات قصر المنستير: *A. Lezine, Le Ribat de Sousse,P.LXXIV*

على هذا الدور مما أدى إلى إزالة بعض أقسامه بعد الزيادات التي أضيفت للقصر في مختلف العصور، وبقي الجزء القبلي وحده بكامل عناصره[1] وهذا الرباط ومنارته أصبح من خصائص مدرسة العمارة في الغرب الإسلامي[2].

والعمارة التي قام عليها قصر الرباط في المنستير وملحقة رباط النساء يوضح الفن المعماري الإسلامي في صورته المغربية.

وهناك نماذج للرباطات في تازة ورباط الفتح إلا أنها تفتقد لبعض خصائص الرباطات الإفريقية **فرباط تيط** على ساحل الأطلسي وعلى بعد حوالي 12 كلم من مزغان وهذا في مولاي عبد الله اليوم وهو من القرن 12م به ثلاث أبواب وله ست قلاع عظيمة من الحجر الصلد[3] ورغم مرور الزمن فقد صمد في وجه الدمار، ومع ذلك فإننا لا نملك له صورة كاملة حتى نتعرف على شكل من أشكال رباطات المغرب الأقصى.

ويلاحظ الأستاذ جورج مارسيه (*Marçais*) أن هناك اتصالا وثيقا بين الفن الإفريقي التونسي والهندسة الحربية المرابطية وخير مثال على ذلك **قلعة تزغيموت** (*Tasghimout*) فهي تمثل الهندسة العسكرية التي تربط بين صنهاجة الشرق وصنهاجة الغرب[4] هذه القلعة العتيدة عبارة عن قلعة أو رباط أسسها المرابطون لمدافعة الموحدين كانت تقيم بها حامية مرابطية تتكون من مائتي فارس وخمسمائة من المشاة لحراسة بلاد هرغة وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من مراكش وعلى بعد ثلاثة كيلومترات ،وعلى بعد نحو عشرة

---

(1) د.إبراهيم شبوح، حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية ،ص: 06.

(2) نفسه، ص:07.

(3) نفسه، ص :06.

(4) انظر : *Marçais, l'architecture musulmane P :219.*

كيلومترات شرقي أغمات[1] ولذلك برز في عهد المرابطين والموحدين الفرق بين الفن الديني في بناء المساجد والزوايا وبين الفن العسكري في اتخاذ القلاع والحصون والرباطات وهو ما أعطى ثروة فنية إسلامية تجمع كل خصائص الإبداع المعماري الإسلامي[2] ومن خلال دراسة الرباطات بالمغرب الأقصى حيث تبدو حسب شهادة المؤرخ إبراهيم حركات أنها لا تختلف عن الرباطات الإفريقية فهي عبارة عن حصون مربعة يتكون الواحد منها من طابقين يرقى إلى الثاني منها بسلم ويحتوي كل منها على غرف تطل على صحن تحيط به أقواس وفي كل من زوايا الحصن برج لمراقبة العدو[3].

وحتى المدن المغربية والأندلسية من خلال الأبواب والأسوار تظهر على شكل رباط من خلال التصميم المعماري[4]، والعمارة الحربية الأندلسية واضحة المعالم لأنها دار جهاد إلا أن تصاميم القلاع الحربية ولا تختلف الربطات في شيء عن تصاميم قلاع المرابطين والموحدين وهذا ما نجده من خلال برج قرطبة المثمن الشكل وهو من الأعمال الموحدية[5] وكذلك حسب وصف قلعة تزغيموت التي تعبر عن امتزاج الفن المغربي الأندلسي في أبلغ صورة إذ أن المرابطين ومن بعدهم الموحدين قد وقعوا تحت تأثير العمارة الدينية والحربية الأندلسية وانتقل الفن الأندلسي إلى المغرب من

---

(1) انظر : *Ibid P: 220.*

(2) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص: 766.

(3) أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دمشق، دار الفكر،1977م.ط.2.ص: 05.

(4) إبراهيم حركات، التاريخ المغرب عبر العصور،الجزء الأول، المغرب الأقصى، دار السلمي)(د.ت)ص:175.

(5) انظر : على سبيل المثال أبواب شالة في رباط الفتح فهي عبارة عن مقدمة قلعة عتيدة كذلك أبواب طليطلة فهندستها هندسة عسكرية راجع :

*G. Marçais manuel d'Arts musulmane l'architecture P567-665.*
*Elias Teres , le développement de la civilisation arabe à tolede P:83*

خلال بقايا المرابطين والموحدين من قلاع ومساجد وحصون وأسوار نكتشف هذا التأثير الأندلسي البديع الذي أظهر للوجود المدرسة المغربية الأندلسية في الفن المعماري الديني والحربي[1]

والظاهر بعد دراسة هذه الأشكال المعمارية يمكن أن نذهب أبعد من هذا على أساس أن العمارة الحربية والرباطات والحصون بالخصوص في الغرب الإسلامي كانت إلى حدّ ما متقاربة من حيث التصاميم فهي جلها تقريبا مربعة بها أبراج للمراقبة وكوى لرمي النبال وأخرى لرمي الحجارة عن طريق الدبابات (المنجنيق) وربما يعود هذا التّشابه المعماري إلى سهولة التواصل الحضاري والتكامل الاجتماعي والعسكري بين جهات الغرب الإسلامي إلى فترات طويلة في عهد الولاة وعهد الخلافة الأندلسية ثم بلغ التواصل المغربي والأندلسي عصره الذهبي في عصر المرابطين والموحدين ولهذا فالأبواب والأسوار والأبراج لها نفس الأشكال ونفس التصاميم مما أعطى مدرسة حقيقية في الفن المعماري الحربي ببلاد المغرب الإسلامي.

الرّباطات الإسلامية ونظام الرّهبانية والدّيرية المسيحية:

عرفت أوروبا في العصور الوسطى حركة دينية تعرف باسم الرهبانية والديرية والمقصود بالرهبانية عيشة الفرد عيشة انعزالية في خلوة كاملة بعيدا عن المدن والأماكن العامرة، أما الديرية فهي تعني التقاء جماعات من الرهبان واجتماعهم في مكان بعيد كذلك عن العمران والانقطاع فيه للعبادة[2] وعرفت المسيحية بذور الزهد والرهانية من خلال تعاليم السيد المسيح عليه

---

[1] انظر هذه القلعة في عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من سقوط الخلافة بقرطبة، بيروت، دار النهضة العربية، 1981م.ص:439.

[2] أنو الرفاعي تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، ص :19 وما بعدها.

السلام، الذي يؤثر عنه قوله: **إذا أردت أن تكون كاملا فبع ما لديك وأعط ثمنه إلى الفقراء واتبعني**[1].

وإذا كنا نسمع عن أمثلة بعض الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية في أوائل عهد المسيحية (إلا أن هذا اللون من الوان الحياة الدينية لم يصبح شيئًا مألوفا في المشرق المسيحي قبل القرن الرابع، في حين لم ينتشر في الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس ويفهم من هذا أن الحياة الديرية شرقية الأصل بل أن أقوى أثر تركه الشرق في المسيحية)[2] ومن هذا نحدد أن الزهد والعزلة وهما من الدعائم الأولى للحياة الديرية مهدا في أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التي تحولت فيما بعد إلى حياة ديرية اجتماعية[3].

ومعرفة الديرية كنظام ديني واجتماعي، يبرز لنا دراستنا المقارنة بينها وبين الرباط والمرابطة الإسلامية التي تعرفنا على قيامها ودورها الحضاري في غير هذه الدراسة.

تبدأ الديرية من حالة الزهد والتنسك المتأصل في الشرق شأنه شأن ما تنطوي عليه المسيحية من مبادئ أخرى ثم امتدت إلى الغرب[4] (واتخذ الزهد عند المسيحيين الأوائل صورة بسيطة تتمثل في طول أمد الصلاة والصيام وفي حرص النساء على العفة في حين أنه كان مألوفا في مصر في القرن الثالث أن يعتزل الزاهد أو الناسك بيته، بل أنه يتخلى عن المجتمع المتمدين نهائيا) ومن هنا بإمكان الباحث تفسير الرغبة في العزلة والتقشف

---

[1] إبراهيم أحمد العدوي ، المجتمع الأوروبي العصور الوسطى، دار المعرفة القاهرة 1961 ص: 80.

[2] انظر : *Don Charles Poulet, histoire du christianisme (Antiquite) Paris 1931 P: 349*

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى،بيروت، دار النهضة،1972 ص :312.

[4] نفسه ،ص: 127.

بأنها كانت رد فعل نفسي؛ ضد ما ساد المجتمع الروماني في القرن الرابع الميلادي من انحراف وفوضى (فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة، وبين فساد المجتمع الخارجي من جهة أخرى، دفع كثيرا من المخلصين إلى الفرار نحو الأماكن النائية ينشدون راحة الفكر والضمير، هذا فضلا عن الاضطهاد الوحشي الذي لقيه المسيحيون والذي بلغ أشده في أواخر عهد دقلديانوس)[1] مما جعل الكثير يفكرون في الفرار بعقيدتهم إلى الأماكن البعيدة، لهذا أصبح الفقر والحرمان يؤديان إلى طهارة النفوس[2] (وفي هذا المعنى يصح اعتبار الديرية حركة إصلاحية جديدة استعادت مكان المسيحية الأولى من مثل بالحياة الآخرة أضحى الناسك والراهب من أبطال الإيمان مثلما كان الشهداء الأوائل، وصار موئل الصفات المسيحية الخالصة وظلا على ذلك ألف سنة)[3].

وهيأت الفوضى التي تردت فيها الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع الميلادي للكنيسة جوا خاليا من المنافسة، مما أبرزت مقام القسيس ورجل الدين في المجتمع، فغدا رجال الدين بالضرورة طبقة بارزة ذات نفوذ وسطوة، وأبرز دليل ما عرف به رجال الكنيسة من تبجيل وتقدير في أوساط الشعوب الجرمانية وهذا ماكان من أمر رجال الدين والكنيسة التي وصلت إلى غرب أوروبا أثناء القرن الذي تلا اعتناق الإمبراطور قسطنطين[4]

---

[1] الباز العريني ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى،بيروت،دار النهضة العربية،1968م.ص :165 ، أنظر : أخبار الزهاد والرهبان، أبوبكر الطرطوشي، سراج الملوك ص:39.

[2] السيد الباز العريني، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، 1968 ،ص: 165.

[3] نفسه، ص:165.

[4] د.أ.ل.فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة،محمد مصطفى زيادة، والسيد الباز العريني، منشورات جمعية التاريخ الحديث، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، 1976م.ط.6.ص:112.

المسيحية فمن المعروف أن التنسك ظاهرة عامة في جميع الأديان وأن المسيحيين في مصر هم أصل الدعوة لهذا النوع من الحياة الدينية[1]، ويعتبر القديس بولس الطيب(حوالي 251-356م ) والقديس أنطوان المعاصر له أول مثلين تعرفهما الرهبانية فالقديس بولس أضْفَتْ عليه الكتابات المتأخرة هالة واسعة من النور يصعب في ضوئها المصطنع تميز الحقيقية من الخيال، حتى قيل أنه قضى سبعة وتسعين عاما وحيدًا في أحد كهوف طيبة بمصر العليا[2] (أما القديس أنطوان فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبان في مصر العليا خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة إلا في نظر القديس أنطوان قامت على أساس الانفراد )[3].

لهذا يعلل المؤرخون ظهور الرهبانية وانتشارها في صورة عزلة انفرادية في بداية الأمر كاحتجاج على ما طرأ على المسيحية من تغيير منذ عامها الأولى، وعلى أنها ثورة على ما ساد المجتمع الروماني من تسيب ،ومن حياة شبه وثنية في القرن الرابع الميلادي،وظهرت المفارقة الحادة بين ما يرد في الكتاب المقدس من ديانة خالصة وحياة سهلة، وبين ما صنفه رجال الدين وهذا بترتيب هيئتهم[4] .يقول المؤرخ فشر (وإلى هذا العصر الغاشم (القرن الرابع الميلادي) وحوادثه بالذات يرجع أصل السيطرة والمكانة والسلطة التي يتمتع بها رجال الدين حتى الوقت الحاضر، لأن الفوضى التي ترددت فيها

---

*- حكم الإمبراطورية من 306م إلى 337م ففي عهد وقع المجمع المسكوني بنقيا بتركيا الحالية وظهر المذهب الإثناسيوس بعقيدة التثليث وتبناه الإمبراطور ورفض المجمع مبدأ التوحيد وبشرية عيسى عليه السلام الذي يدعو إليه القديس أريوس وهي عقيدة التوحيد.

[1] هـ.ا.ل ، فشر، **تاريخ أوروبا بالعصور الوسطى** ، الجزء الأول ص: 112-113.

[2] عاشور، **تاريخ أوروبا العصور الوسطى**، ص: 128.

[3] نفسه،ص: 128.

[4] أنظر : فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى جـ1 / ص:112-113.

الإمبراطورية منذ القرن الرابع الميلادي هيأت للكنيسة جوا خاليا من المنافسة وطفولة الجرمان وجهالته أبرزت مقام القسيس في المجتمع ...وسمح الجرمان الساذج بتدخل الدين في أخص شؤونه إلى درجة لو حرّرت سيدة رومانية زمن الإمبراطورية لاعتبرته فضولا لا يطاق ولا يغتفر،... فغدا رجال الدين بالضرورة طبقة بارزة ذات نفوذ وسطوة، وأوضح دليل على طلب الكنيسة في القرن السادس الميلادي إلى رجال الدّين أن يتخذوا لأنفسهم طرازًا خاصا، فاختاروا القباء الطويل والشعر القصير حفظا للزي الروماني القديم في حين ظل الجرمان على عادتهم من القباء القصيرة والشعر المرخي على الكتفين).

وازداد الرهبان قوة من لاهوت غليظ صارم وما غلب على حياتهم من صفة دنيوية فضلا عن الإبتذال والمجون خارج الكنيسة، كل ذلك حمل النفوس شديدة الحساسية على الفرار إلى الصحراء والابتعاد عن دواعي الإغراء ومفاسد المدينة الرومانية والبحث عن الصفاء الروحي بالعزلة [1] وعمد هؤلاء الرهبان* إلى المغالاة في تعذيب الجسم وإذلال النفس بالمعيشة الإنفرادية،في القفار البعيدة عن المدن والعمران، أو على رؤوس الجبال، وذلك فضلا على التهجد أثناء الليل وأطراف النهار ، مع الصيام الطويل والحرمان،وغير ذلك من رهبانية صارمة ابتدعوها لأنفسهم ولقيت في نفوس الكثيرين من إتبعوهم – هوى فساروا على منوالهم[2] (ومهما يكن من أمر فإن الرهبانية الإنفرادية نوع من التطرف البعيد عن الحكمة وطبيعة الإنسان الإجتماعية فليس من الدين في شيء أن يبتعد الفرد عن إخوانه من بني الإنسان ليعيش وحيدًا وسط الهوام... لذلك كان لابد للعقلاء الراغبين في

---

[1] السيد الباز العريني، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص 164.

(*)-انظر : حياتهم وانقطاعهم السيد الباز العريني، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص 164.

[2] فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى جـ1/ص 113.

الانقطاع للعبادة من ابتكار نظم أخرى تتفق وطبيعة البشر ومن هنا نشأ النظام (الديري) الذي يجمع بين الرغبة في الإنقطاع للعبادة من جهة وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى)[1] .

وكانت أول الأديرة التي عرفتها المسيحية هي تلك التي شيدها باخوميوس في دندرة وأخميم بصعيد مصر، ما بين (315-320م)[2] (وهنا يلاحظ أن باخوم تأثر عند إقامة ديره الجديد بما شاهده في الجيش الروماني من نظم ، فجاء الدير في تصميمه وخلواته أشبه بشيء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية، كما أن القديس باخوم أستن لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المعروفة في الجيش الروماني ففرض على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومي زيادة على مباشرة الطقوس الدينية)[3].

وبهذا الطرح الجديد لنظام الرهبانية والديرية من حياة التعبد عند المسيحيين وجد الناس ضالتهم فأقبلوا على الديرية إقبالا شديدا حتى بلغ إتباع القديس باخوم عام 390م ثلاثة آلاف راهب ، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى[4] .

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبانية والديرية خارج حدود مصر في الجزء الشرقي من العالم الروماني، أي في بلاد الشام وقبرص

---

[1] عاشور، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ص 138- 139.

*- من أهالي الوجه البحري بمصر ، ولد في أسرة فقيرة من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا في جيش قسطنطين حتى اهتدى إلى المسيحية فانسحب إلى الصحراء ليباشر حياة رهبانية انفرادية متبعا مذهب (العزلة عبادة) إلى أن ذاق ذرعا بهذه الحياة فشيد أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص139.

[2] نفسه، 139.

[3] نفسه، ص:139.

[4] نفسه، ص:139.

وبين بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى[1] ويمكن ملاحظة تطور الديرية والرهبانية في هذه المرحلة وهذا أيام القديس باسل (329-379م) الذي استفاد من الأنظمة الديرية الأنطونية والباخومية ولم تعجبه (فأسس مؤسسة ديرية في قيصرية الجديدة بآسيا الصغرى ...وسرعان ما أصبحت التنظيمات التي وضعها القديس باسل للمؤسسات الديرية بمثابة دستور للأديرة الباسلية)[119] وصارت تتزعم الحياة الديرية في الإمبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى[2].

ونظام القديس باسل يجمع بين المثالية والواقع العملي ،إذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل الدير،وجعل الرهبان يشتركون اشتراكا فعليا في الحياة العامة،فنبذ إقامة الاديرة في الصحاري والمناطق النائية ،وفضل إقامتها في المدن أو بالقرب منها ،وحرم نظامه تعذيب النفس وإهمال الجسد ووجه طاقات الرهبان توجيها إيجابيا ،وهذا بتوجيه نشاطاتهم للأعمال النافعة، ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل المنطقة التي يقع فيها الدير[3] (وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النافع المفيد داخل الدير ،مثل الفلاحة والنسيج وصناعة الجلود والأخشاب والبناء مع تحريم الملكية الخاصة على أعضاء الدير بحيث لا يمتلك الراهب إلا ثو ـه ونعليه)[4] ومن هذا يمكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقي للديرية )[5].

---

[1] حكيم أمين عبد السيد، **الجماعات الرهبانية في وادي النطرون في القرن الرابع الميلادي**(رسالة ماجستير مارس 1955م.رقم:142(كلية الآداب قسم التاريخ، جامعة القاهرة).ص:20.

[2] عاشور، تاريخ أوروبا،ص: 139.

[3] نفسه،ص:139

[4] سعيد عبد الفتاح عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص:130.

[5] نفسه ،ص:130.

وعلى الرغم مما يقدمه الدير للمجتمع الأوروبي، إلا أنه يلاحظ أنها مقدمة للتكفير والانحلال، فأصبح نظام الديرية من عوامل تمزيق كيان الأسرة وشل كثير من مرافق الحياة العامة، وأثر على الدولة الرومانية (فاستنت قانونا يقضي بتحريم دخول الأديرة على اللائقين للخدمة العسكرية وربما كان من العوامل التي دفعت الدولة إلى اتخاذ مثل هذا القرار هو أن الديريين أخذوا يشتبكون أحيانا مع الكنيسة والدولة)[1] ولأن الديريين فرضوا مباداءهم على المجامع الدينية بالقوة، وفي هذه الحالة يمكن اعتبار انتشار الحياة الديرية قد أدى إلى وجود فئتين من رجال الدين الأولى ،تشمل رجال الدين النظاميين،أي رجال الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة وفئة ثانية تظم رجال الدين (الدنيويين)أو(العلمانيين )أي رجال الكنيسة من أساقفة وشماسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العكس من الديريين ،كانوا أكثر تدخلا في الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعامة الناس[2].

(وانتقلت الرهبانية الشرقية إلى إيطاليا حوالي سنة 339م على يد أثناسيوس صاحب المذهب المشهور ووصلت منها إلى إسبانيا وغاليا وإيرلندا[3]'غير أن العقلية الأوروبية على وجه العموم لم ترحب بالصرامة التي تطلبها هذه الحياة الجديدة ،ولم تستحسن صورة الراهب المصري وهو يطل على حجاجه وزواره[4] من علياء التقوى الجائعة والقذرة لان العقل اللاتيني يميل إلى الناحية العملية في الحياة'[5] ويبدو المؤرخ (فشر من خلال هذا النص بعقليته الغربية التي تحتقر كل ما هو شرقي ،لهذا يظهر اللاتيني في

---

[1] السيد الباز العريني ،تاريخ أوروبا العصور الوسطى ،ص168، عاشور ،تاريخ العصور الوسطى ص131.

[2] عاشور ،تاريخ العصور الوسطى ،ص:131.

[3] نفسه،ص:131.

[4] نفسه،ص:132.

[5] نفسه،ص:133.

صورة صاحب العقلية العلمية والشرقي في صورة قذرة وهذا ما يبرز عقدة التفوق الغربي؛ حتى في العقيدة الواحدة التي يعتنقها المسيحيون في أوروبا والمشرق على أن هذه العلاقة عرفت اختلافات متباينة فيما بعد بين الأثناسيوسية والأريوسية وهي لا تدخل في مجال الحديث عن تطور الديرية الرهبانية في أوروبا حتى يتسنى لنا دراستها ومقارنتها مع الرباطات والمرابطة في العالم الإسلامي، ويبدو لنا من خلال دراسات المؤرخين أن (غاليا) هي البلد الوحيد في غرب أوروبا الذي كانت به مجتمعات ديرية منظمة، وذلك على الرغم من الاتفاق على وجود رهبان متفرقين ،أو جماعات غير منظمة من الرهبان في كثير من بلاد الغرب[1] و نتيجة لجهود ثلاثة رجال تفخوا في الحركة الديرية بإيطاليا روحا جديدة تغيرت الأوضاع وأعطى هؤلاء الرجال للديرية طابعا غربيا وهؤلاء هم بندكت وكاسيدور[2] وجريجوري[3] وما يهمنا في هذا المجال التعرف على النظام الديري البندكتي ثم بعده الديرية الايرلندية لإنها مجال دراستنا المقارنة .

والقديس بندكت هو صاحب الفضل في تأسيس النظام الديري الذي عرف باسمه والذي جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة في الغرب بعد أن حل النظام البندكتي محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة كما تمتع لأول مرة في تاريخ المنظمات الديرية ،بتأييد البابوية وعطفها[4].

---

[1] فشر ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،جـ1/ص113.

[2] يعارض السيد عبد الفتاح عاشور ،هذه الرؤيا فهو يرى أن الطريقة المصرية وجدت لها صدى في غرب أوروبا أنظر :عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص134 . حكيم أمين عبد السيد، الجماعات الرهبانية في وادي النطرون في القرن الرابع الميلادي، ص:143 وما بعدها.

[3] فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ،جـ1/ص113.

[4] عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ،ص135.

والقديس بندكت هذا من أسرة إيطالية معروفة بالثراء والجاه،ولد حوالي سنة 480م وتلقى تعليمه في أرقى مدارس روما ولكن هذا الشاب الورع كره حياة الفساد التي سادت روما إذ ذاك وهجر الترف والنعيم ولجأ إلى كهف منعزل في مكان جبلي ولم يلبث أن أدرك أن حياة الرهبنة على النحو الانعزالي لا تحقق التنسك السليم ،لأن الراهب يلقى من المتاعب ما يدفعه إلى التخلي عن الطريق القديم للزهد"[1].

ولما ذاعت شهرته ،قصده الناس طلبا للبركة ،حتى تجمع حوله عدد من المريدين وعندئذ فكر بندكت حوالي سنة 520م في الانتقال إلى مكان بعيد عن روما وأرسل بعض أتباعه للبحث عن موضوع أكثر ملائمة واختار الرهبان موضع مناسب في منتصف الطريق بين روما ونابلي عند (مونت كاسينو) حيث يوجد معبد قديم للآله أبولو (وهكذا اختار بندكت ذلك الموضع لإقامة ديره الأول ... ثم أخذ رهبان الدير الجديد يعملون في تطهير المنطقة المجاورة في الغابات والمستنقعات واستصلاح أراضيها للزراعة حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالي المناطق القريبة بالغلات والمحصولات المختلفة خلال أوقات الشدة[2] ولهذا انتشرت الدعوة إلى التقشف والتنسك في غرب أوروبا لا في صورة رهبانية إنعزالية بل في صورة ديرية إجتماعية وقامت طريقة القديس بندكت على قاعدة أن الإنقطاع للعبادة ينبغي أن

[1] عاصر بندكت اعتزال خدمة الملكية القوطية في إيطاليا بعد حياة سياسية حافلة بالعمل الكثير وآثر الانقطاع للحياة الديرية فشيد مؤسسة ديرية في كلابريا موطن آبائه وأجداده وجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة الدينية والدنيوية أنظر:عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص138.

[2] جرنجورى الأولى هو الديري البندكتي الذي أصبح بابا ليقوم بدور المنظم للحياة الديرية في غرب أوروبا فالفارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يساهم مثلهما بنواح مبتكرة في نظم الحياة الديرية ومثلها ولكن جهوده ظهرت في تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذي أتى به القديس بندكت وقرب بين الديرية والبابوية والكنيسة واستغل جرنجوري الديرية كأداة فعالة لنشر المسيحية ،عبد الفتاح عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص139.

يكون مزيجا من العمل اليدوي والدراسة في الكتب المقدسة والصلاة الجامعة وعمت الطريقة البندكتية أرجاء الغرب الأوروبي وأسهمت بسهم كبير في مضمار التقدم الإنساني آنذاك[1]"وللديريين البندكتيين الفضل في تعمير الأراضي الجديدة التي استقروا بها وزرعوها بعد إصلاحها والعناية بالفقراء والمساكين وهم كذلك أصحاب الفضل في صون المخطوطات ونسخها حفظا لها من الضياع والنسيان والواقع لم تكن ثمة وسيلة غير الديرية لصون ما تبقى من نور المدنية الأوروبية حين لم يكن في أوروبا سوى ظلام الحروب والغزوات التي أحلت الجرمان محل الرومان"[2].

ويحدد المؤرخ (فيشر) العوامل التي ساعدت على إنتشار الديرية البندكتية في أرجاء الغرب الأوروبي وهي النمو الروحي والبطولة الدينية والخوف من عذاب الآخرة والتملص من تكاليف الحياة غير أن العامل الذي فاق هذه العوامل كلها في اجتذاب الكثيرين من الناس إلى الحركة الديرية هو الشعور باستحالة العيش في عالم مزقته إغارات الجرمان ودكت أركانه الحروب وهو عالم طفحت سياسته بالآثار والشهوات ومن هنا يتضح في رأي فيشر السر في ميل الكثيرين من الناس إلى حياة التنسك[3] (إذ قطعوا الأمل في الدنيا وما فيها من الناس، فانسحبوا من الظلمة والفوضى المحيطة بهم في هذه الدنيا إلى النور والهدى الذي وعد المسيح به جميع المتقين) [4] .

وأما الديرية الإيرلندية، فيرجع الفضل في تأسيسها إلى المبشر الإيرلندي (كولمبانوس *Columbanus*)وقبل هذا كانت الإرساليات البندكتية التي

---

[1] عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى،ص135.

[2] العدوي ،المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ،ص:84.

[3] عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص:136.

[4] فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص:113.

قصدت إنجلترا وغاليا الفرنجية، وقد صادفت في طريقها نوعا من الأديرة الكلتية التي انتشرت من إيرلندا إلى إنجلترا وغاليا وألمانيا[1] .

وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة في إيرلندا[2] إلا أنها لم تتحول إلى الكنيسة الغربية إلا في عهد القديس (باتريك) الذي يرجع له الفضل في تأسيس أسقفية أرماغ في الشمال الشرقي في إيرلندا سنة 445م (ويبدو أن تطرف إيرلندا وعزلتها ساعدت على احتفاظ الكنيسة الإيرلندية ببعض الأوضاع الكنسية القديمة بعد أن درست هذه الأوضاع واختفت من صلب القارة وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضاع لذلك بدأ الخلاف بين الإيرلنديين والبابوية منذ عهد البابا جريجوري العظيم ولم ينته هذا الخلاف حتى سنة 733م عندما قبل الإيرلنديون الأوضاع المعمول بها في الكنيسة الرومانية) [3].

واستطاع القديس كولمبانوس تحويل القبائل الوثنية في إسلندا إلى المسيحية بعد تأسيسه الأديرة بها. وتعتبر الديرية الإيرلندية التي جدد بها كولمانوس الديرية البندكتية من النماذج الفريدة من نوعها في أوروبا من حيث وفرة المخطوطات وحماستها الدينية التي أشعلت حركة التبشير في أوروبا العصور الوسطى، حتى استطاعت هذه الديرية الإيرلندية الامتداد إلى إنجلترا والاصطدام بالديرية البندكتية في الجنوب، وفي ألمانيا وإيطاليا وسويسرا وغاليا، وعلى الرغم مما عرفت به نظم الأديرة الإيرلندية من تطور في أعمال الزراعة وحماسة في نشر المسيحية في أوروبا، فإنها لم يقدر لها البقاء

---

[1] نفسه ص: 113-114.

[2] نفسه، ص 114.انظر: نظرة جديدة للرهبانية، كاتي كوب ، وهارولد جولد وايت، إبداعات النار(تاريخ الكيمياء المثير من السيمياء إلى العصر الذري) سلسلة عالم المعرفة،الكتاب رقم:266 الكويت، فبراير 2001م.ص:87.

[3] فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ،جـ1/ ص:114.

طويلا لأن كولمبانوس لم يقرر وسيلة للربط بين هذه الأديرة بعضها بعض، كما أنه اصطدم في سرعة بالنظام البندكتي ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صبغة عملية أوضح فضلا عن تمتعها بعطف البابوية ورعايتها، فإن نظام القديس كولمبانوس (تـ 615م) لم يستطع الثبات طويلا[1].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا كيف قام الديريون بدور فعال في نشر الديانة المسيحية ونشر الأمن بين الفقراء والمستضعفين في عهد الفتن والاصطربات على الرغم من اعتناق الجرمان للمسيحية وتبنيهم للحضارة الرومانية[2] .

و(أما في الميدان الاقتصادي فإن نشاطهم أدى إلى إصلاح كثير من الأراضي والنهوض بالزراعة، زيادة على جهودهم العملية في النسيج والصباغة ودبغ الجلود وصناعتها؛ الأمر الذي تبعه نبوغهم في زخرفة المخطوطات وتزيينها)[3].

ويتضح أيضا من الموازنة بين الديرية في الشرق والغرب أن الأولى أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان الحضارى بينما الدّيرية الإيرلندية أصبحت مركزًا للحضارة والعلم ومؤسسات اقتصادية وجامعية في ظلمة العصور الوسطى[4]-(هذا إلى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل في الموازنة بينها وبين الديرية الشرقية بقدر ما تتمثل في الأثر الذي تركه النظام البندكتي في حياة العصور الوسطى ومفكريها)[5] وبعد استعراضنا لهذه المؤسسة

---

[1] عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص:140.

[2] أنظر: .Poulet (Dom Charles), Histodu chrisianisme; P:541.

[3] *Ibidem.*

[4] عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص:142-143.

[5] كافين رايلي، الغرب والعالم تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (سلسلة عالم المعرفة) القسم الأول ترجمة عبد الوهاب محمد المسيري ، وهدى عبد السميع ،فؤد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والآداب رمضان مايو الكويت 1405هـ/1985م ص:180.

الدّينية في أوروبا والمشرق يطرح علينا بإلحاح سؤال هام:-هل هناك تأثير بين الرباط والمرابطين في العالم الإسلامي، بينها وبين الرّهابنية والديرية في عالم العصور الوسطى المسيحية في أوروبا؟.

الرّهبانية من وجهة النظر الإسلامية لا نقول فيها إلا ما قال القرآن نفسه في سورة الحديد: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] . وفسرها ابن كثير 774هـ/ 1374م فقال :(ورهبانية ابتدعوها أي ابتدعتها أمة النصارى حتى ذمهم الله لابتداعهم في دين الله وفي عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عزوجل).

والنصوص الإسلامية تدعو إلى الاعتدال وتحذر من مغبة التطرف الذي يعبر عنه لسان الشرع بعدة ألفاظ منها(الغلو)و(التنطع)و(التّشدد)[2] وفي الحديث ينهى الرسول ﷺ عن الغلو ويخوف من التنطع عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال:(إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين)[3] والمراد بمن قبلنا: أهل الأديان السابقة وخاصة أهل الكتاب وعلى الأخص النصارى[4] وقد خاطبهم القرآن بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[5] والنصارى أكثر غلوا

---

[1] عاشور ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص:145.

[2] نفسه،ص:145.

[3] نفسه ، ص: 145.

[4] أليكسي جوارفسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة، د.خلف محمد الجراد، الكويت عالم المعرفة رقم:215.جمادى الآخرة 1417هـ/تشرين الثاني، 1997م.ص:31 وما بعدها.

[5] سورة المائدة : أية 77.

في الاعتقاد والعمل من سائر الطوائف وإياهم نهى الله عن الغلو[1] (ومن أجل هذا قاوم النبي كل تجاه ينزع إلى الغلو في الدين وأنكر على من بالغ من أصحابه في التعبد والتقشف مبالغة تخرجه عن حد الإعتدال الذي جاء به الإسلام... فقد شرع الإسلام من العبادات ما يزكي نفس الفرد ويرقى به روحيا وماديا وما ينهض بالجماعة كلها ويقيها على أساس من الأخوة والتكافل دون أن يعطل مهمة الإنسان في عمارة الأرض فالصلاة والزكاة والصيام والحج عبادات فردية وجماعية في نفس الوقت فهي لاتعزل المسلم عن الحياة ولا عن المجتمع بل تزيده ارتباطا به شعوريا وعمليا ومن هذا لم يشرع الإسلام الرّهبانية)[2] بل يدعو الدين الحق إلى تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليها عن الرذائل[3] وأنكر القرآن الرهبانية التي تفرض على الإنسان العزلة عن الحياة وطيباتها قال تعالى:﴿ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾[4] وقال أيضا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[5]

---

*- أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (مختصر تفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين بن الكثير) اختصار وتحقيق، محمد علي الصابوني، المجلد الثالث، الطبعة السادسة دار القرآن الكريم ، بيروت 1981، ص 456.

يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف (كتاب الأمة) الطبعة الثالثة دار الشهاب باتنة الجزائر 1402هـ/ص: 24.

[1] رواه أحمد في مسنده والنسائي وابن ماجة في سننهما.

[2] يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية ص 25.

[3] أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، بيروت،مؤسسة الرسالة، 1984،ط.2 ص: 8.

[4] الأعراف : آية31.

[5] المائدة : آية 87-88.

أما الرهبانية في الإسلام كما جاءت في الحديث الشريف فهي الجهاد في سبيل الله عزّ وجل والجهاد رأس العبادة ودرة تاجها[1]. يقول الرسولﷺ:(لكل نبي رهبانيته، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عزّ وجل) وفي رواية (لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله)[2] إذن فالجهاد رهبانية الإسلام ويرى المستشرق نيكلسون (1863-1945م)[3] أن الحديث الشهير الذي نطق به الرسول ﷺ (لارهبانية في الإسلام) كان في الحقيقة شجبا للعقيدة النصرانية هذه وبرهانا على كبر نفوذها في الوقت نفسه[4] والمأثور عن النبي أنه شجب الرهبانية وضمنها العزوبية كما ورد ذلك في القرآن الكريم[5] ويضيف نيكلسون فيقول (ولكن تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة الحديد الذي ساد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دل على أن النبي امتدح الرهبانية بوصفها مدرسة أمرت بها المشيئة الإلهية وأن التنديد بها كان منصبا على أولئك الذين أفسدوها)[6].

---

[1] أبو الأعلى المودودي الجهاد في سبيل الله،بيروت،موسسة الرسالة ،1983م.ط.6.ص: 10.

[2] انظر تخريج هذه الأحاديث وتفسيرها : مختصر ابن كثير ص: 456.

[3] تخرج نيكلسون بتفوق من كلية اللغات الشرقية (كلية ترنتي بكمبردج) ثم ذهب إلى ستراسبورغ وليدن، ثم عاد إلى كمبردج واشتغل مدرسا للفارسية مدة ربع قرن وعد نيكلسون حجة في التصوف الإسلامي انظر : رينولد ألن نيكلسون، التصوف (ترث الإسلام تأليف جمهرة من المستشرقيين بإشرف سيرتوماس أرنولد ترجمة وتعليق جرجيس فتح الله) بيروت، دار الطليعة، 1978م.ط.3 ص 303.

[4] يرى الأستاذ الندوي أن الرهبان في نماية القرن الرابع الميلادي وصلوا إلى عدد أهل مصر أنظر : أبو الحسن علي الحسني الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الطبعة الرابعة الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية السالمية الكويت 1978 ص: 234.انظر تطور الرهبانية في مصر، حكيم أمين عبد السيد، الجماعات الرهبانية ، ص:137 وما بعدها.

[5] نيكلسون، التصوف (تراث الإسلام) 309.

[6] نفسه، 309.

ولكن الدراسات الإسلامية التي تناولت تفسير سورة الحديد وشرحت أحاديث الغلو والتطرف والتنطع تؤكد أن الرّهبانبة ابتدعها النصارى ما رعوها حق رعايتها ولم يأمرهم بها الله سبحانه وتعالى وبذلك نرى أن نيكلسون في تفسيره للنصوص الإسلامية قد جانب الحقيقة العلمية.إذا كان هذا موقف القرآن والسنة النبوية من الرهبانية، فكيف كان واقع المسلمين؟.

ومن المعاصرين لدولة المرابطين – محمد بن العربي المعافري الإشبيلي- وهو من الذين عارضوا صراحة الرهبنة والتصوف الفلسفي، بالرغم أنه قد مال في آخر عصره إلى العزلة ، وقرر في كتابه: "سراج المريدين" أن العزلة أفضل من الخلطة في صورة ما إذا فسد المجتمع ، وأصبحت الحياة بين ظهرانيه شاقة كدرة، حائدة عن منهج الشرع، وقانون الدين"[1]. وكانت العزلة والإعتكاف صنو المتصوفة الزهاد المسلمين،الذين كان منهم من ينعزل بنفسه أيامًا طويلة بين القبور، يناجي أرواح الأموات.وهي ظاهرة مرتبطة جدلا بما كان يحدث بالأندلس من ضياع للأرض وهتك للعرض وفقدان الأحبة، وضعف حالهم أمام مأساة الأندلس الكبيرة وضياع مدنها.

يحاول الباحثون الموازنة بين المرابطة والتصوف في الإسلام وبين الرهبانية والديرية في المسيحية كما وازنوا بين الرباط والدير، ومن خلال ما تقدم تعرفنا على أن الرباط الإسلامي ظهر نتيجة للظروف الحربية التي عرفها المسلمون في الشرق والغرب وعلى الأخص أثناء غياب الأسطول الإسلامي والسر في وجود الرباط ناتج عن الصراع المرير الذي قام منذ

---

[1] سليمان مصطفى زبيس، المنستير ماضيها ومعالمها التاريخية، ص 4.

*Marçais , note sur les Ribats en Berberie P: 2.*

ظهور الإسلام بين النظام الإسلامي والنظام البيزنطي[1] (وهو صراع بدأت تدور رحاه في الحوض الشرقي من البحر المتوسط فانتقل شيئا فشيئا نحو الغرب) ويؤكد غالبية الباحثين أن الرباط الإسلامي مستمد من المصطلح القرآني المذكور في سورة آل عمران{ يا أيها الذّين آمنوا أصبروا وصابروا، ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}[2] والصبر والمصابرة والرباط والمرابطة هنا من مواطن الجهاد عند المسلمين[3]

ويرى الباحثون أن (لفظة المنستير لفظة يونانية لا لطينية اعتاد أهل البلاد إطلاقها على المؤسسة النصرانية التي يؤمها الرهبان والتي تسمى بالعربية الدّير فلما جاء هرثمة بن أعين بمؤسسة الرباط إلى تونس لم ير في البلاد وفي هذه المؤسسة من حيث نظامها ومن حيث معمارها شيئا يختلف كثيرا على الأقل حسب الظاهر عن الدّير أو المنستير فأطلقوا على الرباط الإسلامي نفس الإسم الذي كانوا يطلقونه على الدير النصراني)[4].

وعرف المسلمون الأديرة والحصون الرومانية بحكم احتكاكهم بالمسيحيين أيام فتوح الشام ومصر، إلا أنه يصعب التسليم بالقول بفكرة

---

[1] قال الإمام ابن العربي:"والجماعة لا تفارق في الإعتقاد ما العمل إذا كانوا على حق ، وفي هدنة ، وإذا رأيت الباطل والفتنة فالبس حلل النوى ، وانتوى" بل أن العزلة نفسها أصبحت مربية في أنفس ذوي السلطة ،إذ يرهبون أولئك المعتزلين بدعوى الزهد والتقوى" أنظر ابن العربي المعافري، سراج المريدين في سبيل المهتدين ، كاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية ، مخطوط رقم:(20348 ب) نسخة مصورة دار الكتب المصرية ورقة رقم:74:د.عمّار طالبي ، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية الجزء الأول ، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، (د.ت) ص:78.انظر نظام العزلة وأسبابه عند الجماعات الرهبانية في مصر، حكيم أمين عبد السيد، الجماعات الرهبانية، ص:7، 8 وما بعدها.

[2] آل عمران ، الآية:200.

[3] محمد شديد، الجهاد في الإسلام، مؤسسة الرسالة ببروت 1981 ص 116.

[4] سليمان مصطفى زبيس، المنستير ماضيها ومعالمها التاريخية، ص 4.

التأثير المسيحي في الرباطات والزوايا، فإذا وازنا بين دور الرباطات والزوايا الإسلامية، ورباطات المغرب على الخصوص وبين دور الأديرة البندكتية والإيرلندية،نجد بعض المهام المشتركة كالوظائف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي أدتها الأديرة المذكورة والرباطات الإسلامية، إلا أن وجه الإختلاف باق بين المؤسستين الإسلامية والمسيحية، وهو بقاء تدل عليه الاختلافات الموجودة من حيث الغاية والتصميم المعماري فمن جانب الغاية والهدف نلاحظ أصالة الرباطات الإسلامية، ومن خلال المصطلح[1] وأما من حيث التصميم المعمارية فالرباط في تصميمه استمد مظاهر القوة من القرآن الكريم ولم تعرف الرباطات والعمارة الحربية والدينية الإسلامية محاكاة الطبيعية فعند معالجة فن البناء العسكري، ينصرف المعماري المسلم عن التجسيم ابتعادا واضح الأثر في كل ما أنتجه من أعمال[2] وعلى الرغم من حضور الموروث البيزنطي في فضاء الغرب الإسلامي من قلاع وحصون إلى كنائس[3] فإننا نستبعد تأثير العمارة الحربية المغربية[4] من قلاع وحصون ورباطات بالعمارة البيزنطية لأن إجماع المؤرخين على وجود مدرسة معمارية مغربية استمدت جذورها من القيروان في الهندسة المعمارية الدينية، ومن المنستير في الهندسة المعمارية الحربية (رباطات وحصون وقصور ومحارس، وأبراج) يدعونا إلى الذهاب أكثر من هذا إلى القول بأن المدرسة المغربية والرباط الإسلامي ابتعدا عن مظاهر الفن المعماري المسيحي الدّيني والحربي،

---

[1] يتضح المصطلح الإسلامي في الدور التي قامت من أجله.

[2] أبو صالح الألفي ، الفن الإسلامي،ص: 83.

[3] -أنظر: *Golvin Lucien, essai sur l'architecture musulmaine(l'achitecture des grandes mosquees Abbassides de Ibne Tulun, l'architecture des Aghlabide T3. Paris 1974 P 205.*

[4] أنظر قلعة بني حماد مثلا :

*Golvin Lucien, le Magreb central à l'époque Ziride( recherche d'archeologie et d'histoire) France 1957 P 183.*

ولأن المسلمين قد عرفوا انحراف المسيحية عن التوحيد نظرا لتأصل عبادة الصور في نفوسهم رغم وضوح تحريمها في بعض قرارات المجامع المسكونية[1].

(وقد أسرف المسيحيون في عبادة القدّيسين والصور المسيحية،حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر)[2] لهذا السبب ابتعد المسلمون عن تقليد العمارة المسيحية، أما التصوف الإسلامي فهو مختلف عن الرّهبانية فإذا كانت الرهبانية بدعة ابتدعها المسيحيون، فإن التصوف الإسلامي قبل جناية الدّجالين والمنحرفين فإنه من صميم الدّعوة الإسلامية فإذا عدلنا عن مصطلح التصوف الذي شاع في القرن الثاني للهجري(ورجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين وتأملنا في القرآن والحديث وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ (التزكية) ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الكريم ﷺ لتحقيقها وتكميله يقول تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] هذه الشعبة هي تزكية النفوس وتهذيبها وصحب هذه الصفات الأحسان والصبر والزهد وغنى القلب والتوكل والإيثار والجهاد في سبيل الله والإخلاص والخشوع في الصلاة هي صفات الصوفية العارفين قبل جناية المضللين والمقلدين والفلاسفة الملحدين وقبل جناية الإستشرق عليه مدعين أن التصوف الإسلامي له جذور إغريقية وفارسية وهندية ورومانية ومسيحية[4].

---

[1] محمد أبو زهرة ،محاضرات في النصرانية، القاهرة، دار الفكر العربي، 1972م. ط 4. ص: 163.

[2] الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: 42.

[3] الجمعة : الآية 2.

[4] الندوي، ربانية لا رهبانية ، ص: 8.

فالزهاد والعُبَّاد خدموا الأمة الإسلامية في الرباطات والزوايا بإخلاصهم دون انحراف عن القرآن والسنة[1].

أما الرهبانية التي لها تأثير عميق في حياة المجتمع الأوروبي فانها قد أحدثت انقلابا في المجتمع وهذا بتفكك الأسرة وتأرجح المجتمع بين الرهبانية والفجور حتى وصف أحد الأوروبيين مجتمعه في القرن الرابع الميلادي فقال: ( أن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس وإجماعهم، وكانت الدعارة والفجور والإخلال إلى الترف)[2] ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية قد عدلت من شره المادية الرومانية التي عرفتها أوروبا في القرن الرابع الميلادي[3] .

أما الصوفية والمرابطون فقد كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ونتيجة لأخلاق هؤلاء الصالحين والدعاة اهتدى بهم خلق وتابوا عن سالف أعمالهم[4].

وإذا وجد تشابه بين الأديرة البندكتية والإيرلندية بينها وبين الرباطات في الغرب الإسلامي فهو تشابه في مجالات اقتصادية اجتماعية وثقافية بينما لا يمنع هذا من وجود فروق كبيرة بين العباد والزهاد والمرابطين المسلمين ورجالهم والرهبان ورجال الدين المسيحيين وتتجلى هذه الفروق أيام المواجهة بين العالمين الإسلامي والمسيحي في الحروب الصليبية وفي غيرها من الحروب، فالمسلم الزاهد بشهادة علماء الغرب يتمتع بإنسانية

---

[1] نفسه، ص: 9.

[2] الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: 240.

[3] نفسه ص: 242.

[4] الندوي، ربانية لارهبانية ، ص: 97.

عالية من خلال تسامحه أو معاملته للأسرى المستضعفين من الصليبيين، بينما صاحب الحروب الصليبية إرهاب وقسوة ووحشية من قبل الصليبيين فاقت كل التصورات[1] كما لم يقم المرابطون والتطوعة من عامة الأمة الإسلامية بما قامت به هيئة الداوية[2] والهيئات الصليبية الأخرى[3] التي تدعي حماية الحجاج المسيحيين.

وأصبح الفرسان الرهبان، بما اشتهروا به من نظام قوي وبما ذاع لهم في العالم المسيحي بالغرب من صيت ومكانة يستطيعون أن يكفلوا لملوك بيت المقدس المدد الكافي، وهذا مما زاد في عمر الإمارات الصليبية في المشرق الإسلامي[4] وهذه الأدوار الصليبية التي تقوم بها الهيئات الدينية العسكرية (الداوية والاسبتارية) التي رسخت النزعة العدوانية في الثقافة الغربية

---

[1] كافين رايلي، الغرب والعالم جـ 1 / ص 197.

[2] تأسست هذه الهيئة الصليبية عام 512هـ/1118م لتحمل مسؤولية حماية حجاج بيت المقدس وحراسة الطرق المؤدية إليها، وقد حاربت هيئة الداوية المسلمين إلى جانب قيامها بدورها الذي تأسست من أجله، ويطلق عليها أيضا : فرسان المعبد : أنظر محمد العروسي المطوى، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص: 96. عاشور قمعون، الدور الصليبي لهيئة الداوية في الشام ومصر(1118-1302)أطروحة لنيل شهادة الدراسات المعمقة (غير منشورة) معهد التاريخ جامعة الجزائر 1982م.ص: 6 ومابعدها.

[3] هناك هيئات صليبية عسكرية كثيرة وأهمها الإسبتارية أو فرسان القديس يوحنا يرجع تأسيسها إلى ما قبل الحرب الصليبية الأولى، كانت لها مشاركة قوية في محاربة المسلمين والدفاع عن المصالح الصليبية وبعد فتح بيت المقدس من قبل صلاح الدين تحول رجال الإسبتارية إلى مدينة عَكّا، ثم جزيرة قبرص فجزيرة رودس واستمروا فيها إلى غاية 1522م وكان وجودهم برودس قد دام من 710هـ إلى 929هـ 1310-1522م انظر : محمد العروسي المطوي، الحرب الصليبية في المشرق والمغرب ص: 97، ستفن رنسيمان، تاريخ الحرب الصليبية، الجزء الثاني ص 249.انظر أيضًا نبيلة إبراهيم مقامي ، **فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، القاهرة 1975م(رسالة جامعية)بإشراف حسنين محمد ربيع رقمها 1456.(الرسائل العربية،جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ).وعن دور قبرص في الحركة الصليبية انظر:سعيد عبد الفتاح عاشور، **قبرص والحروب الصليبية**، جامعة القاهرة(مكتبة قسم التاريخ.رقم:111.)، 1949م.

[4] ستيفان رنسيمان، تاريخ الحرب الصليبية جـ 2 / 251.

واكسبت الفلسفة الغربية قبل الحروب الصليبية بقليل مناعة ضد السلام العالمي وأعلنت الحرب على المسلمين باسم الصليب والحضارة المسيحية[1].

وظلت مقولة بولس:(القتال في سبيل المسيح) مرادفة في بلاد الشام للخدمة العسكرية التي يؤديها فرسان المعبد وفرسان القديس يوحنا وبذلك يتضح الفرق الواضح بين دُعاة الخير والأمن والإنسانية من المسلمين؛ وبين دُعاة الحرب من أجل المسيح من رهبان وأمراء وملوك إقطاعيين.

والحرب في تصور الزهاد والعباد، الغرض منها ونتيجتها هو وقف الإعتداء والظلم واستتباب الأمن وعبادة المسلمين ربهم آمنين في دينهم ووطنهم وإعلاء كلمة الحق ودعوة الدين وتنفيذ شريعته وكل هذا تعود مصلحته على البشر كلهم مسلمهم وكافرهم[2].

وقد عَلَّمَت الحروب الصليبية المسلمين والبيزنطيين على حد سواء أن يكرهوا الغرب كما لم يكرهوه من قبل وقد خلص دبلوماسي بيزنطي إلى أن الغرب يعني الحرب والاستغلال وروما الغربية هي أم الشرور كلها[3].

وبذلك يتضح الفرق الجلي بين الرباطات والمرابطة والتصوف الإسلامي* والرهبانية إنه الفرق بين الخير والسلم وبين الشر والحرب.وهذه العلاقة حققها العالم الإسلامي رمز الخير بزهاده وعُبَّاده ومثل الغرب الصليبي الشر برهبانه وفرسانه.

---

[1] كافين رايلي ، الغرب والعالم جـ 1 ص: 195.

[2] عبد الله بن زايد آل محمود، الجهاد المشروع في الإسلام، الجزء الأول الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت 1982، ص: 57.

[3] كافين رايلي، الغرب والعالم جـ 1 / ص: 198.

*- عن الزهد والتصوف من وجهة نظر أجناس جولد تسيهر ، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة : محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، على حسن عبد القادر، بيروت، دار الرائد العربي 1946، ص: 119-166.

وخلاصة القول: أن الرباطات قامت بدور معماري في بلاد المغرب، مما أعطى للرباطات المغربية ميزة خاصة عن بقية رباطات العالم الإسلامي في العصور الوسطى.

كما إن الرباطات المغربية والأندلسية من حيث تصاميمها المعمارية تظهر وحدة العمارة الإسلامية مما يبرز التواصل المعماري بين رباطات المشرق ورباطات المغرب وحينما وازانا بين الرباط والمرابطة في العالم الإسلامي ونظام الرهبانية والديرية في أوربا العصور الوسطى، استخلصنا أن الرباطات المغربية الإسلامية بعيدة عن تأثير المؤسسات الدينية والحربية المسيحية على الرغم من حضورها في الفضاء المغربي أيام البيزنطيين خلال الفتح الإسلامي، رغم محاولة بعض المستشرقين وبعض المؤرخين المسسلمين السير في نفس الطريق الذي يقول بوجود تأثيرات مسيحية في الرباطات الإسلامية والتصوف الإسلامي وقد بينا مما لا مجال فيه للشك الفروق الجلية بين المؤسسة الإسلامية (الرباط) والمؤسسة المسيحية (الدير والرهبانية) بما يكفي للإستنتاج والبرهان على أصالة الرباط في المغرب وهو نفس ما ذهب إليه المؤرخ عثمان الكعاك[1] وبلاد العالم الإسلامي ورغم أسبقية ظهور الديرية والرهبانية فإن نظام الكثير من المؤسسات المسيحية كالداوية (فرسان المعبد

---

[1] يبرز الأستاذ عثمان الكعاك أصالة الرباط المغربي فيقول " وأسس البربر الرَّابطة وهو رباط أو رابطة أو حصن على جبل تجمع فيه أقوات القبيلة ومدخراتها من الزاد ويتولى بعض أفراد القبيلة حمايتها، وأسس النصارى مركز عبادة للزهاد وفيه خلوة وانفراد وأسس الايرانيون الساسانيون أضرحة الأموات وهي منائر تضئ السبيل وتطرح بها الأموات لتفترسها جوارح أما الرباط المغربي فهو كل هذا في الآن الواحد، فهو ليمارس حراسة الثغور البرية أو البحرية ورابطة لجمع الزاد الجماعي وحمايته ومنستير للتعبد ومنارة لإيضاح السبيل وإقامة العلامات النارية للبريد بالليل والحمام الزاجل بالنهار، فكان الخبر يصل في ليلة واحدة من سبتة إلى الإسكندرية) أنظر عثمان الكعاك، **المراكز الثقافية في المغرب**، ص: 37.

الذين تكونوا بفلسطين) والأسبتارية بجزيرة رودس كان مستمدا في أوائل القرن الثاني عشر من التنظيمات الإسلامية خاصة منها نظام الرباط[1].

ويرى بعض كبار المؤرخين الأسبان، أن النظم الديرية العسكرية (*Military Orders*) التي برزت إلى حيز الوجود في شبه الجزيرة الإيبيرية ابتداء من منتصف القرن السادس/ الثاني عشر الميلادي كنظام قلعة رباح وسانتياغو والقنطرة إن هي إلا تقليد للرباطات الإسلامية في مناطق الثغور الأندلسية حيث كان المرابطون فيها يجمعون بين العبادة والجهاد في سبيل الله والدفاع عن أرض الإسلام[2].

يقول أحد المؤرخين أنه (قبل ظهور الديرية العسكرية لدى النصارى بقرون كان لدى المسلمين الرباطات التي كان يعتكف فيها الزهاد للعبادة والدفاع عن الحدود، وهكذا فإننا نجد اليوم في كل من أسبانيا والبرتغال أماكن كثيرة تحمل إسم (*Rabida Rapita*) وما احتفاظ الأسبان والبرتغاليين بأسماء هذه الأماكن سوى دليل على وجود رباطات إسلامية كانت تحمل هذا الاسم[3] كما يعبر هذا في الغرب الإسلامي على تأثير نظام الرباطات في نظم الديرية العسكرية المسيحية في أوروبا العصور الوسطى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[4]

---

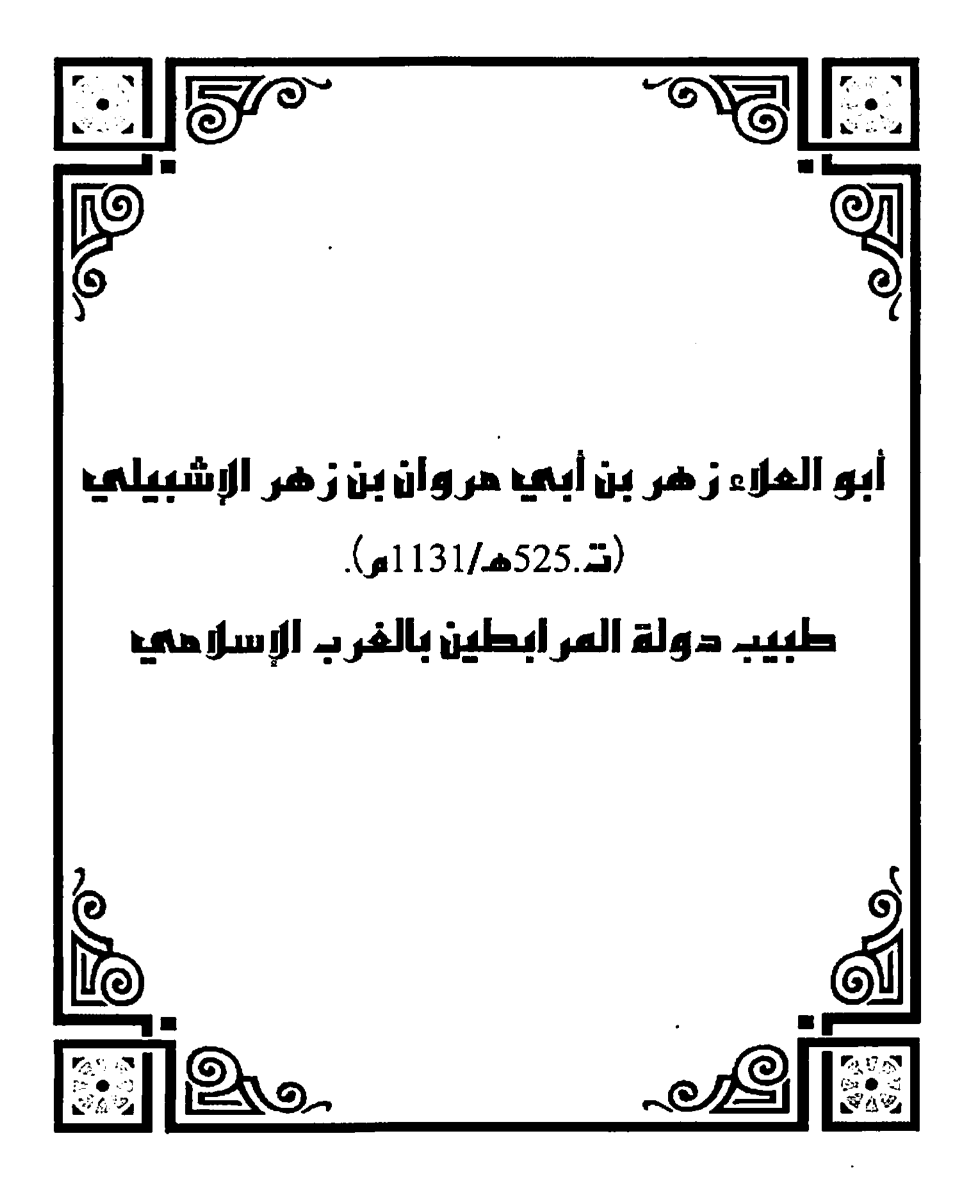
[1] عبد العزيز بنعبد الله، معلمة الفقه المالكي ، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1983م.ص:47.

[2] أمين توفيق الطيبي، الشيخ أبو مروان عبد الملك اليُحانسي (دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس) ص: 273.

[3] انظر أيضًا الدراسة القيمة حول نشأة رباط عابدان بالمشرق وانتقال نظام الرباطات إلى الغرب الإسلامي زمن هارون الرشيد كما أسلفنا:

Jaime Oliver Asin,Origen arabe de Rebato,Arrobada,y sus humonimes, Madrid, 1928.PP:19

[4] سورة يونس ،الآية: 32.



# أبو العلاء زهر بن أبي مروان بن زهر الإشبيلي

(ت.525هـ/1131م).

# طبيب دولة المرابطين بالغرب الإسلامي

## مدخل عام

هدفنا الرئيسي في هذا المدخل هو أن نبين إلى أي مدى كان الغرب الإسلامي صاحب تجربة فذة فيما خلفه علماء الأندلس في العلوم الطبيعية، وإلى أي مدى كان العلم والطب وبقية عناصر العلوم الطبيعية ذات أثر كبير في مدرسة طليطلة إلى غاية تأسيس مدرسة ألفونسو العالم (*El Sabio*)، ومع ذلك لا يفوتنا التنويه بأي إنجاز مهم للمسلمين عامة في هذا الميدان، إذ لا يكاد يوجد شيء من جهود المشرق في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب الإسلامي والغرب المسيحي بطريق أو بآخر[1].ونحب أن نذكر أن الطب والأطباء في الغرب الإسلامي قد عرف الأعلام الكبار خاصة أسرة بني زهر الشهيرة[2]. ونريد أن نشير إلى أمر هام أن العلماء العرب المسلمين وهم كل العلماء الناطقين بالعربية أو المؤلفين بها أو الناقلين إليها سواء كانوا عربًا خلصًا أو مستعربين لغة، وبغض النظر عن أصلهم أو موطنهم فارس أو الحجاز أو الشام أو مصر أو الأندلس أو المغرب الإسلامي، فهم كلهم شركاء في الانتماء إلى هذه الحضارة العظيمة التي مهدت للإنسانية في العصر الحديث سبيل البحث العلمي النظري والتجريبي، كما لا يمكن ولا ينبغي أبدًا أن تتطلب اكتشافاتهم واجتهاداتهم في العلوم البحتة أن تتوافق

---

[1] جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، تراث الإسلام(الجزء الثاني) ترجمة د.حسين مؤنس، د.إحسان صدقي العمد، مراجعة د.فؤاد زكريا،(سلسلة عالم المعرفة) الكويت العدد:234،صفر 1419هـ/يونيو،حزيران، 1998م.ط.2.ص:139.

[2] محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه الدولة، مخطوطة، المجلد الثاني، إشراف أ.د. عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر، نوقشت يوم الخميس 15 ماي 2003م.ص:471 وما بعدها.

واختراعات العصر الحديث، إلا أن أبرز ملاحظة أن مختلف النظريات العلمية التي نادى بها علماء الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين إنما سبقهم إلى اكتشافها كثير من العلماء العرب وتوصلوا إلى الطريقة العلمية التي وصلوا بها إلى هذا الاكتشاف.ويكفي في هذا المدخل أن نذكر الدستور المحكم في البحث العلمي المذكور في الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفاء التي تبحث في الصنائع العلمية وينحصر البحث العلمي الرصين عندهم في تسعة أحكام تتناول وجود الشيء أو عدمه، وحقيقته، ومقداره، وكيفيته، أو صفته، وماهيته، ومكانه، وزمانه، وعلته، وتعريفه.وتبين أن العرب المسلمين اتبعوا دستورًا محكمًا في البحث العلمي[1] ومن الصدق أيضًا أن نرجع هذه الأحكام إلى أرسطو الذي ضمنها مقولاته العشر، وإن اختلفت عن أحكام إخوان الصفاء بعض الشيء، ولا ينبغي مطلقًا أن نقبل الادعاء بأن الطريقة العلمية هي من مبتكرات العصر الحديث ومن وضع بيكون وجون ستيوارت مل على وجه التحديد، والمؤكد أن العلماء العرب كانوا الأسبق في اكتشاف واتباع المنهج العلمي التجريبي، فإنجازات الحضارة الإسلامية المتنوعة جاءت نتيجة استخدام المنهج العلمي الصحيح في دراسة المادة،ذلك المنهج الذي استخدمه العلماء المسلمون الكبار، كالعالم الكيميائي جابر ابن حيان(ت.200هـ/ 815م)والعالم الفيزيائي البصري الحسن بن الهيثم(ت.232هـ/ 847م)والعالم الموسوعي أبو الريحان

---

[1] أبو يعقوب الوارجلاني، الدليل والبرهان، المجلد الثاني، تحقيق الشيخ سالم بن حمد الحارثي، ثلاثة أجزاء في مجلدين، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1403هـ/1983م.ص:258. قدري حافظ طوقان، النزعة العلمية في التراث العربي( صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد) المجلد الثاني،1373هـ/1954م.ص:90. إحسان محمد الحسن، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، مجلة المورد العراق، المجلد الخامس عشر، الجزء الثالث،1406هـ/1986م.ص:63.

البيروني(ت.440هـ/ 1048م)،وقدموا من خلاله أروع الإنجازات في تاريخ العصور الوسطى، حيث كانت الصّلات الفكرية والعلمية مستمرة بين مختلف أقطار العالم الإسلامي ينتقل بين ربوعها العلماء والطلاب والمؤلفات والمذاهب الفكرية[1].يقول الباحث الإنجليزي المولد الأمريكي الإقامة مارتن برنال في كتابه أثينة السوداء الذي أحدث انقلابًا كبيرًا في تاريخ العلوم وأعاد السبق العلمي إلى أهله من المصريين والفينيقيين والكنعانيين، وأثبت مما لا مجال فيه للمراوغة وتغطية الحقيقة فيقول: وكان للعرب الفضل الأكبر في تعريف الأوروبيين بتراث أجدادهم، فهم الذين ترجموا أمهات الكتب الإغريقية وأضافوا إليها ما فاضت به قريحتهم من إبداع وابتكار؛ إذ طوروا بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق وشكلوه تشكيلاً جديدًا، فالعرب في الواقع هم مؤسسو البحث العلمي التجريبي، فلم يقتصروا على إنقاذ التراث الإغريقي وترتيبه وتنظيمه ثم إهدائه إلى الغرب، بل إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجغرافيا والجيولوجيا وعلم الاجتماع وحققوا القطيعة التي تؤدي إلى

---

[1] عبد السلام محمد النويهي، علم النبات عند العرب،(موسوعة الحضارة العربية الإسلامية)المجلد الأول، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1978م.ص:156 وما بعدها.محمد العربي الخطّابي، الطب والأطباء في الأندلس(دراسة وتراجم ونصوص) الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1988م.ص:15.شوقي ضيف ( الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الأسبانية)(من المشرق والمغرب، بحوث في الأدب)، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1419هـ/1998م.ص:145. عبد الأمير المؤمن، علم الفلك في الحضارة الإسلامية،(مجلة الجامعة الإسلامية) لندن، العدد الرابع، السنة الأولى، أكتوبر-ديسمبر 1994م.ص:210.

الانتقال الجذري القاصر إلى تصور فتح الطريق أمام معرفة موضوعية وليس بالضرورة أن نَقَلَتَهُمْ كانت صحيحة مائة بالمائة[1].

ازدهر الإنتاج في ميدان الطب إبان القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين وبلغ عصره الذهبي في القرن الثاني عشر. وقد شارك المسلمون وأسهموا في العمل على إنضاج علوم الطب وتركوا بصماتهم على طريق تقدمه وازدهاره، وهذا بما حققوه من كشوف علمية طبية بدراساتهم التجريبية[2]، وقد عرف المسلمون فروع الطب كالطب الوقائي، والطب

---

[1] مارتن برنال، أثينة السوداء(الجذور الأفرو آسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الأول، تلفيق بلاد الإغريق(1785–1985) تحرير ومراجعة أحمد عتمان، ترجمة لطفي عبد الوهاب، فاروق القاضي، منيرة كروان عبد الوهاب، علون حسن الشيخ، سلسلة المشروع القومي للترجمة، رقم:16. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،1997م.ص:59. عبد الهادي عبد الرحمن، **الفكر الإسلامي في العصر الوسيط والقطيعة الإيستيمولوجية**، (مجلة دراسات عربية)، العدد الأول، بيروت، السنة السابعة والعشرون، 1990م.ص:54.

[2] توفيق الطويل، **لقطات علمية من تاريخ الطب العربي**، مجلة عالم الفكر، المجلد الخامس، العدد الأول، إبريل–مايو، الكويت، 1974م.ص:267.رحاب عكاوي، **ابن النفيس (علي بن أبي الحزم القرشي"جالينوس العرب"**(سلسلة أعلام الفكر العربي)، بيروت، دار الفكر العربي،1996م.ص:38 وما بعدها.محمود الحاج قاسم محمد، **انتقال الطب العربي إلى الغرب (معابره وتأثيره)**،ص:22 وما بعدها. محمد حسن كاظم الخفاجي، **مقدمة في التراث الحضاري لتصنيف العلوم**(مجلة المورد العدد الخاص (العلوم عند العرب)، المجلد السادس، العدد الرابع، بغداد،دار الحرية للطباعة، شتاء 1977م.1398هـ:ص:208 وما بعدها. يُمنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين(الأصول–الحصاد–الآفاق المستقبلية)** سلسلة عالم المعرفة رقم:264.الكويت،رمضان 1421هـ/ كانون الأول 2000م.ص:67.

محمد عابد الجابري، **ابن رشد سيرة وفكر(دراسة ونصوص)** بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ،أكتوبر 1998م.ص:230 وما بعدها.أحمد مختار العبادي، **الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي(ندوة الأندلس، الدرس والتاريخ) 13-15** أبريل 1994م.كلية الآداب.جامعة الإسكندرية، تقديم عبد الله بن.عبد المحسن التركي، الإسكندرية،(بحوث ندوة الأندلس(الدرس والتاريخ)كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية(2-4 ذو القعدة 1414هـ/ 13-14 أبريل 1994م)، الإسكندرية ،دار المعرفة الجامعية، 1994م.ص:124 وما بعدها.

محمد العربي، **المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عن العرب**، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1994م.ص:198.-

العلاجي والتشريح، والجراحة، وأمراض العيون، وطب الأطفال، وأمراض النساء في مرحلة مبكرة[1] وعرفوا الطب النفسي، وكان من أطباء الإسلام من عرف مرض الوهم وهي من الأمور والأحداث النفسية التي تؤثر على الجسم، وهي من المسائل التي يجب على الطبيب ملاحظتها؛ وقد ضمت أجنحة المستشفيات أجنحة لأمراض الأعصاب، والعقل ووضع بعض الأطباء رسائل ومؤلفات في هذه الأمراض[2].وفرق الأطباء في مرحلة متقدمة بين الجدري والحصبة، وأحسنوا التدبير والكشف والمراقبة، وعرفوا

---

-محمد سويسي، **فلسفة العلم العربي المعرفية الإبنستيمولوجية بصفة عامة، وما امتازت به من طريف بالأندلس والمغرب العربي**(دراسات أندلسية، رقم:7.)العدد الخاص رقم:1.تونس، رجب 1412هـ/جانفي 1992م.ص:51.

[1] سعيد شيبان، **مصنف عصري، لطب العين- مرشد الكحالين لمحمد بن أسلم الغافقي**-الأصالة السنة الثانية العدد:( 20) مايو-جوان-1974م. الجزائر، ص ص:41-55. محمد قسوم بن أسلم الغافقي(منتصف القرن الخامس الهجري)، **المرشد في الكحل**، تحقيق ونشر، مايرهوف،برشلونة 1933م. ص:12. ( من القطع المتوسط). علي عبد الله الدّفاع، **إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1407هـ/1987م.ط.2.ص:200وما بعدها. إبراهيم بن مراد، **أبو جعفر أحمد الغافقي في كتاب" الأدوية المفردة**،دراسة في الكتاب وتحقيق لمقدمته ونماذج من شروحه (مجلة معهد المخطوطات العربية) المجلد الثلاثون، الجزء الأول، إصدار جديد، الكويت،جمادى الأولى، شوال، 1406هـ/يناير-يونيو 1986م.ص:157. أما الصيدلة فقد كانت إضافات العرب المسلمين رائدة في علم الطب النبوي والتقليدي وكذلك تركيب الأدوية بصورة مثيرة، تستحق الإعجاب، انظر:محمود الحاج قاسم محمد، **ماذا أضاف العرب لعلم الصيدلة** ؟(مجلة المورد) المجلد الثاني، العدد الثالث، العراق 1973م.ص ص:49-53. عريب بن سعيد القرطبي، **كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، الجزء الثالث**، اعتنى بتصحيحه وترجمته والتعليق عليه، الأستاذ نور الدين عبد القادر، والحكيم هنري جاهيه، الجزائر، منشورات كلية الطب والصيدلة بالجزائر، 1375هـ/1956م.ص:12-75. نشأت الحمارنة،**طب العيون في الأندلس** (دراسات أندلسية) عدد:8، عدد خاص رقم:2.تونس 1492-1992م.ص:35-51.ص:47.

*Al-Ghafiqi, Le guide d'Oculistique)Al-Morchid fi-L.Kohhil édition Max.Meyerhof. Masseu, Barcelone, 1933. (cote B.U.Alger)N°207434*

[2] خالد عز الدين ، وهُدَى عز الدين فراج، **الطب الإسلامي**، القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص:22.

ما لا يسع الطبيب جهله، فقال الرازي -وهو أعظم طبيب سريري في العالم الإسلامي-ليس يكفي في إحكام صناعة الطب قراءة كتبها، بل تحتاج مع ذلك إلى مزاولة المرضى، إلا أن من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبل التجربة كثيرًا ولا يشعر بها البتة[1].

وغرض الرازي من كتابه المرشد أن يكون كتابًا جامعًا لخلاصة صناعة الطب بصورة مبسطة، وأن يحوي هذا الكتاب قائمة بأسماء المراجع التي يجدر بالطبيب الفاضل الاستعانة بها لتحصيل الجزء العلمي من الطب، ذلك الجزء الذي لا يكون طبيبًا إلا به[2]، وهو نفس الغرض الذي طرحه للعامة من الناس وهو ينصح بطرق الغذاء الطبية ومنافع الغذاء ومضاره من خلال ظروف العصر حيث كان طعام البسطاء من مرضاه يعتمد على الخبز والماء والشراب واللحم؛ فاقتصر حديثه على مكونات أغذية الطبقة الدنيا من مجتمعه في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[3]، والغرض من هذا ومن دراسة تاريخ العلوم هو تقديم صورة واضحة للتفكير العلمي في العصور الوسطى، عند أمة من الأمم.وقد اتبع أطباء الأندلس منهجًا علميا في تحديد شروط تجربة الدواء، وقد لخصها بعضهم على النحو التالي:

1. يجب خلو الدواء من كيفية مكتسبة كالحرارة والبرودة.
2. أن يكون المجرب عليه علة مفردة، وليس علة مركبة.

---

[1] أبو بكر محمد بن زكريا الرازي،(تـ313هـ/925م؟)، كتاب المرشد والفصول" مع نصوص طبية مختارة، تقديم وتحقيق د.ألبير زكي اسكندر، تليه دراسة تحليلية لطب الرازي بقلم،محمد كامل حسين(مجلة معهد المخطوطات العربية) القاهرة، المجلد السابع، الجزء الأول، ذو القعدة،1380هـ/ مايو 1961م.ص:119.

[2] الرازي، كتاب المرشد والفصول"، ص:15.

[3] الرازي، منافع الأغذية ودفع مضارها، بيروت، دار إحياء العلوم،1404هـ/1984م.ط.2. ص:10.

3. أن تكون قوة الدواء مساوية لقوة العلة.

4. الانتباه إلى الزمان الذي يظهر فيه أثر الدواء وفعله.

5. أن يكون فعل الدواء على الدوام، فإن لم يكن كذلك يكون تأثيره بالعرض.

6. أن تكون التجربة على الإنسان.

وهذا يعني بالطبع عدم الاكتفاء بالتجريب على الحيوان كما ذهب إلى هذا الأمر من قبلهم ابن سينا في القانون[1].ودراسة ابن سينا للطب والرياضيات والفلسفة، كلها مرتبطة بمناط المعرفة القائمة على فهم الوجود الإنساني، بحيث إنّه كان ينظر في الرياضيات تمامًا كما ينظر في وجود الله، أو علم النبوة، وأرجوزته الشهيرة تدل على ذلك،وكتبه الفلسفية في مسائل الأجساد والأرواح وعالم النبوة لا تخرجه من هذه الدائرة الإسلامية، التي تسعى إلى فهم الدين عند الخاصة والعامة ومنزلة النبوة من هذا، وهي بنفس المنزلة التي عالجها الكيميائي الشهير أيدمير الجلدكي[2].

---

[1] محمد العربي، المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عن العرب، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1994م. ص:198.

ألبير زكي اسكندر، مدرسة الإسكندرية ومناهج التعليم الطبي أوائل العصور الوسطى، (مجلة معهد المخطوطات العربية) المجلد الثالث والعشرون، الجزء الأول، القاهرة، جمادى الأولى 1397هـ/مايو(أيار)1977م.ص:25.

[2] جان جوليفيه، انتشار الفكر الفلسفي في علاقته بالإسلام حتى ابن سينا(الإسلام والفلسفة والعلوم) ندوة اليونسكو بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجري(622-1981م)مكتبة شيستر بيتي دبلن.1983م.ص:62.برهان بن يوسف مهلوبي، مكانة الخيال في نظرية المعرفة عند ابن سينا(حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية) الحولية العشرون، الرسالة 145.الكويت،1421-1422هـ/1999م-2000م.ص:70 وما بعدها.فاضل خليل إبراهيم، عز الدين أيدمر الجلدكي(مكانته العلمية ومؤلفاته في الكيمياء)(مجلة معهد المخطوطات العربية) المجلد التاسع والعشرون، الجزء الثاني، إصدار جديد،=

## العلاء بن زهر طبيب المرابطين

ورثت حرفة الطب على عهد المرابطين تراثًا كبيرًا في علمي النباتات وطريقة تحضير الأدوية، وهي مقدمة مهمة لمهنة الصيدلة، ومن هؤلاء الجغرافيُّ البكريُّ وهو من أعيان الأندلس وأكابرهم، فاضل في معرفة الأدوية المفردة[1] وقواها ومنافعها وأسمائها ونعوتها وما يتعلق بها، وله من الكتب **كتاب أعيان النبات الشجريات الأندلسية**،وكنا قد أفردنا للبكري حديثًا عن مساهمته في علم الجغرافيا واللغة والأدب[2].وعرفت الأندلس على عهد المرابطين الطبيب الوزير العلاء زهر (ت525هـ/ 1130م)[3] هو ابن أسرة من الأسر الأندلسية التي تخصصت في الطب؛ وهي الأسرة التي قدمت ستة أجيال متعاقبة من الأطباء والطبيبات المشهورين[4].

أما الأطباء الستة من بني زهر الذين وردت أسماؤهم في تاريخ الطب العربي فهم:

---

-الكويت، شوال 1405هـ/ربيع الآخر 1406هـ/يوليو-ديسمبر 1985م.ص:615. محمد سويسي، **العلوم العربية بالأندلس، ونقلها إلى أوروبا ودورها في تطور العلوم**، ص:513.

[1] **الأدوية المفردة**:إما نباتية وهي ثمر أو بزور أو زهر أو ورق أو قضبان أو أصول أو قشور أو عصارات أو ألبان أو صموغ، وأما معدنية وهي حجرية، أو مما ينبع مثل القار، وإما حيوانية كالذراريح وأعضاء الحيوانات وأحشائها ومرارتها...ألخ. انظر:الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، القاهرة، منشورات الكليات الأزهرية، 1401هـ/1981م.ص:101.

[2] ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثالث**، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دار الثقافة، 1401هـ/1981م.ط.3.ص:84. محمد الأمين بلغيث، **الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين**، أطروحة دكتوراه الدولة، مخطوطة، المجلد الأول،ص:391 وما بعدها.

[3] مرسي محمد عرب، **لمحات عن التراث الطبي العربي**، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1975م. ص:38.

[4] أحمد بن أبي أصيبعة، **طبقات الأطباء،الجزء الثالث**، ص ص:103-121.عمر بن حمادي، **الفقهاء في عصر المرابطين**، إشراف د.محمد الطالبي، شهادة التعمق في البحث(تاريخ وسيط) جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1987م. ص ص:314-319.

1- أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر بن زهر(ت:478/ 1085م أو 484هـ/ 1091م).

2-أبو العلاء زهر بن أبي مروان بن زهر(525هـ/ 1131م).

3-أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر(557هـ/ 1162م).

4- الحفيد أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر( 596هـ/ 1199م).

5- أبو محمد عبد الله بن الحفيد أبي بكر بن زهر(577هـ/ 1182م-602هـ/ 1205م).

6- أبو العلاء محمد بن أبي محمد بن زهر. وأبو بكر بن زهر الحفيد قتله ابن الأحمر غدرا وهو ابن (37سنة) عامًا (630هـ/ 1232)[1].

**أكبر أفراد هذه الأسرة العالمة بالطب وتجاربه عبد الملك بن زهر(تـ484هـ/ 1094م) ويكنى أبا مروان وهو أعظم طبيب سريري بعد الرازي يباشر علاج المرضى في المستشفيات[2]. قال عنه أحمد بن أبي أصيبعة:كان فاضلا في صناعة الطب خبيرا بأعمالها مشهورا بالحذق[3].لأن**

---

(1) صفوان بن إدريس، زاد المسافر وغُرّة مُحيّا الأدب السّافر،(أشعار الأندلسيين من عصر الدولة الموحدية) أعَدَّه وعلّق عليه عبد القادر محداد، بيروت، دار الرائد العربي، 1980م.، ص:71.توفيق الطويل، لقطات علمية من تاريخ الطب العربي، ص:268.

(2) زهر(أبو العلاء بن زهر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي (تـ525هـ/1130م)كتاب المُجربات، دراسة وتحقيق وترجمة كرستينا ألبَريث ميان، مدريد،سلسلة المصادر الأندلسية، رقم 17.المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الأسبانية للتعاون الدولي، 1994م.17.ص:17.من المقدمة الأسبانية وما بعدها. أحمد بن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء،الجزء الثالث، ص ص:103-121.

*Abu 'l-'Ala Zuhr; La Tedkira, Publiée et traduite pour la première fois par Gabriel Colin, Paris, Ernest Leroux, Editeur,1911. PP:1-2. Colin(G),Avenzoar, sa vie et ses oeuvres,Paris, Ernest Leroux,1911.PP:16-22.*

(3) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، الجزء الثالث، ص:103 -104.

الأطباء طبقتان،طبقة تعتمد الأعمال النظرية،وقراءة الكتب، وطبقة تعتمد التجربة الشخصية والملاحظة الطبية السريرية، مع تجاربهم العلمية وتحصيلهم من خلال كتب القدماء، ومن هؤلاء عبد الملك بن أبي العلاء زهر[1].

وكان والده الفقيه محمد من جملة الفقهاء المتميزين في علم الحديث بإشبيلية، قال القاضي صاعد(ت.462هـ/ 1070م) أن أبا مروان بن زهر رحل إلى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمنًا طويلا[21م]، ثم رجع إلى الأندلس وقصد مدينة دانية، وكان ملكها في ذلك الوقت مجاهد العامري، فلما وصل أبو مروان بن زهر إليه أكرمه إكرامًا كبيرًا، وأمره أن يقيم عنده ففعل وحظي في أيامه بمكانة جليلة، واشتهر في دانية بالتقدم في صناعة الطب، وطار ذكره منها في أقطار الأندلس، وله في الطب كما يذكر مترجموه آراء شاذة في الطب خالف فيها الحكماء كما ذهب إلى ذلك صاعد الأندلسي، وانتقل أبو مروان بن زهر من دانية إلى مدينة إشبيلية، ولم يزل بها إلى أن توفي وخلف أموالا جزيلة، وكان غني إشبيلية ومطمح أنظارها في الرباع والضياع، وبإشبيلية ولد له ابنه أبو العلاء[2].

---

[1] أحمد مضر صقّال، أسلوب الرازي في تشخيص وتدبير الجدري والحصبة من خلال دراسة رسالته"كتاب الجدري والحصبة"(مجلة معهد المخطوطات العربية)المجلد السابع والعشرون، الجزء الأول، إصدار جديد، الكويت،ربيع الأول، شعبان، 1403هـ/يناير-يونيو 1983م.ص:199.ألبير زكي اسكندر، مدرسة الإسكندرية ومناهج التعليم الطبي في أوائل العصور الوسطى،ص:36 وما بعدها.فرانشيسكو فرانكو سانشث، تطور الطب في الأندلس (المجلة العربية للثقافة)العدد السابع والعشرون، السنة الرابعة عشر، تونس، ربيع الأول،1415هـ/سبتمبر أيلول،1994م.ص:186.

(21م)-صاعد الأندلسي، طبقات الأمم،تحقيق حياة العيد بوعلوان، بيلاروت، دار الطليعة، فبراير 1985م.ص:197.

[2] ابن الأبار، التكملة،الجزء الأول، ص ص:334-335.

اشتغل أبو العلاء زهر بالطب وهو صغير السن في أيام المعتضد بالله صاحب إشبيلية وبعد زوال ملكهم أصبح وزيرا لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين المرابطي، وقد قربه المرابطون وأغدقوا عليه من النعم والأموال الشيء الكثير،وأكد هذا ابن الأبار في التكملة فقال:"وحل من السلطان محلا لم يكن لأحد في الأندلس في وقته، أحل من نفسه محلا لم يحلهُ الماء من الظمآن"[1] ترك تراثا كبيرا في الطب والأدب ومن كتبه في الطب كتاب "مجربات الخواص" أهداه للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المرابطي وكتاب الأدوية المفردة، وكتاب الإيضاح في الرد على علي بن رضوان،وكتاب التذكرة، ألفها لابنه عبد الملك[2] فيما رد على حنين بن إسحاق[3] في كتاب المدخل إلى الطب،وكتاب النكت الطبية ومقالة في بسطه

---

[1] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع(البيان المرابطي)تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1980م. ص:85.ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، الجزء الأول، نشره عزة العطار، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1955م. ص:335. د.حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين،القاهرة، 1957م. ص:440.ابن بسام، الذخيرة،القسم الثاني، المجلد الأول، ص:220.ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثالث، ص:104.

*Latifa Benjelloun-Laroui, Les Bibliothèques au Maroc, préface de Mohammed Arkoun (Islam d'hier et d'aujourd'hui) collection dirigée par A.M.Turki (34) éditions G.P.Maisonneuve et larose Paris 1990. .P:24.*

مصطفى شريف العاني، الأواصر المكينة بين الأدب والطب (مجلة المورد) العدد الخاص بتاريخ العلوم عند العرب، المجلد السادس،العدد الرابع بغداد ، 1398هـ/1977م.ص:21.

*Codera y Zaidin, Francisco,Familia Real de los Benitexufin,Extrada-Revista da Aragon 1903.;P:14.*

[2] ألبير زكي إسكندر، مدرسة الإسكندرية ومناهج التعليم الطبي،ص:32. ابن زهر، مجربات الخواص، ص:142.محمد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1983م.ص:162.

*Abu L Ala Zuhr,La Tédkira, PP:3-4..*

[3] عادل زيتون، حنين بن إسحاق ومكانته في الحضارة الإسلامية، (مجلة العربي) الكويت العدد521، المحرم 1423هـ/أبريل 2002م.ص:28 وما بعدها.

لرسالة يعقوب بن إسحاق الكندي في تركيب الأدوية، ومقالة في الرد على أبي علي بن سينا في مواضع من كتابه الأدوية المفردة، وبعد موته أمر أمير المسلمين على بن يوسف بجمع كتبه ونسخها وكانت وفاة أبي العلاء زهر ستة (525هـ/ 1130م). ومن مؤلفات أبي العلاء والد أبي مروان الرائدة معجم طبي بناه على شكل معجم ألف بائي سماه"كتاب مجربات الخواص"حسب مخطوطة بلدوين باكسفورد أو "كتاب خواص الحيوان"، ومنه أخذ أطباء العصر معلوماته وتجاربه التي جربها من خلال تدبيره الطبي، جاء في حرف الخاء: قال في مداواة الأسقام:"يؤخذ عرقوب الخنزير ويحرق ويسحق ويعجن بعسل؛ويسقي منه بعض منه من به مغص ونفخ في معدته وزن مثقال فإنه ينفع نفعًا عظيمًا"[1].

وأبو العلاء زهر طبيب عصر المرابطين من أصحاب المكانة الكبيرة عند وجوه الناس ومما حكى ابن الصيرفي(أبو بكر يحيي بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المؤرخ الأديب في تاريخه الذي خصصه للمرابطين" الأنوار الجلية".إن الطبيب ممن تنافس الشعراء على بابه لمدحه بما يستحق ومنهم محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن خلصة اللخمي البلنسي(ت.521هـ/ 1127م) مدرس العربية الكبير بجامعها، ثم بدانية والمرية.ومما قال في أبي العلاء زهر سنة 520هـ وقيل سنة (521هـ/ 1127م):

[1] *Cambra(Luisa Maria Arvide);El capitulo del-Ja- en el Kitab Muyarrabat al-Jawass de Abu l-Ala'Zuhr(Homenaje Al prof.Jacinto Bosch Vilà,T.II.Granada,1991.P:1099*

غَدت عنك أمواهُ الغُيوم الدوافق | تُفيض بما تُرى زِنادُ البوارق
أنارت جهاتُ الشرق لما أحتللته | فكاد الدُّجى يجلو لنا وجهَ شارق
وكم زَفرت شوقًا بلنسيةُ المنى | إليك ولكنْ رُبَّ حسناء طالق
تقلَّد منك الدهرُ عِقدًا وصارمًا | بهاءً لجيدٍ أو سناءً لعاتق
ولو قُسِمت أخلاقك الغُرُّ في الدنيا | لما صَوَّحت خُضر الرُّبا والحدائق[1]

وترجم كتاب المجربات إلى اللاتينية عام **1490**م، واستمر أطباء أوروبا يستمدون منه معلوماتهم الطبية والجراحية إلى غاية نهاية القرن السابع عشر،وذكر المستعرب الفرنسي رونو(*H.P.J.Renaud*) كما نبَّه الدكتور غابريال كولان(*Gabriel Colin*) أن أبا العلاء زهر وابنه أبا مروان توفيا بالنغلة[2]،والنغلة في اللغة فساد يحدث في الجرح أو في الجلد، وأصلها من نِغَل الجلد أي فسد في الدباغ، وهي أورام وداء يحدث تحت الجلد في منطقة الإبطين الأيمن والأيسر[3].وقبل أن نبين ما استنتجه رونو بشأن النغلة يجد

[1] ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1410هـ/1989م.ص:54. عبريق سهيلة، فن المديح في عهد المرابطين بالمغرب والأندلس، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف، د.يوسف عروج، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1420-1419-1999-2000م.ص:81-84.

[2] *G.Colin, Avenzoar sa vie et ses oeuvres, P: 33.*
محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، الجزء الثاني، ص:32.

[3] ابن زهر(أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر الأبادي (ت.557هـ/1162م)، كتاب التيسير، في المداواة والتدبير،جزءان في مجلد واحد، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري،تقديم الدكتور محي الدين صابر، دمشق، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دار الفكر 1403هـ/1983م.ص:382.هامش رقم:79.محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس، الجزء الثاني، ص:33.

بنا العودة إلى ما قاله ابنه أبو مروان عبد الملك بن زهر في وصف هذه العلة الخبيثة، قال: ويحدث في البدن النُّغلات، وهي أورام تكون تحت الكتف غائرة إلى الداخل تعرض في اليمين وفي الشمال...وأكثر ما تكون إذا تعرض للإنسان أنكاد، وكان يكثر الفكرة وتتوالى عليه الهموم كالذي أصاب أبي- رحمه الله- عما ناله من علي بن يوسف ما ناله، فإنه احترقت أخلاطه، فأصابته نَغلة(وفي أحيان أخرى بالكسرة) في الجانب الأيسر وامتدت طولا نحو الشبر، ثم عاد الموضع لا يُحِسّ وكان المتولي لعلاجه يقطع أجواف النغلة فلا يحس بذلك، ولم يزل الأمر كذلك حتى وصل بالاتصال مضارٌ ذلك إلى قلبه فعرضه سوء تنفس نحو يومين ومات-رحمه الله-...وإنما كان هذا النوع عسر العلاج بسبب أن الأخلاط المحترقة يعسر نضجها على الطريق الأصلح، فقلما يكون عنها مدة بيضاء ملساء محمودة، وإنما تكون عنها أنواع أخرى إما مائلة إلى الغُبْرة وإما إلى الدُّكنة، وقد علمنا أنه لا يكون بُرْء في مثل هذه الأورام العظام إلا بالنضج الصحيح الجاري على السبيل الأفضل، لأن الأورام السوداوية مثل هذه لا ينفع فيها عمل اليد(أي الجراحة) ومتى نالها الحديد تفاقم أمرها، وهي أيضًا تأكل ما يتصل بالموضع أكلا[1].

لقد ساهم أبو العلاء زهر في مسيرة الأسرة الطبية مسيرة هامة من خلال إعداده لابنه أبي مروان عبد الملك الذي يعتبر تاج الأسرة زهر في

---

[1] عبد الملك بن زهر،كتاب التيسير،ص:382. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، الجزء الثامن، القسم الثاني، ص:485-486.دكتورة عصمت عبد اللطيف دندش،أحداث مرابطية من كتاب التيسير لابن زهر(أضواء جديدة على المرابطين)،بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991م.ص ص:119-139. بالنثيا(أنخل)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة عن الأسبانية د.حسين مؤنس،القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية (د.ت).ص:471.محمد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين، ص:36.

الطب وعلومه، وهذا الإعداد الذي قام به الوالد أبو العلاء هو الـذي مكـن الأسرة من البقاء والاستمرار رغم محن السلطة والسياسة في عصرهما، وكان أبو العلاء زهر قد اشتغل بالتطبيب في حياة والده وفي حياة ولـده وهـي مـن نوادر الأمور في تاريخ الأسر العالمة بالغرب الإسلامي.

# الفهرس

محمد الأمين بلغيث، جامعي، له مشاركة بارزة في ملتقيات وطنية ودولية.

له مجموعة من الأعمال والأبحاث هي:

1. كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية لأحمد بن يحيى الونشريسي (تقديم وتعليق) الجزائر 1985م.الطبعة الثانية.عند الناشر.

2. النظرية السياسية عند المُرَادِي وأثرُها في المغرب والأندلس، الجزائر، 1989م.

3. دروس في السياسة الشرعية(دراسة ونصوص)، الجزائر، 1999م.

4. تاريخ الجزائر المعاصر، دراسات وأبحاث، وثائق جديدة وصور نادرة تنشر لأول مرة، الجزائر، دار البلاغ للنشر التوزيع، بيروت، دار ابن كثير، 2001م(418 صفحة) الطبعة الثانية 2007م.

5. دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير، الجزائر 2006م.

6. فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي، منشورات أنتير سينيي 2007م.

7. نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، 2007م.

8.الجزائر في باندونغ، مذكرة الشاذلي المكي إلى المؤتمر، الجزائر، جيجل،دار كتاب الغد.2007م..

9.الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشَّابِّية.الجزائر، مارس 2002م.الطبعة الثانية 2007(الجزائر، جيجل، دار كتاب الغد للنشر والتوزيع)..

10. حركة الإخوان المسلمين وبداية المشروع الإسلامي في العصر الحديث(دراسة تاريخية) الجزائر دار كتاب الغد، جيجل، الجزائر.2007م.

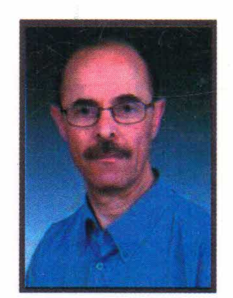
11. دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، دار كتاب الغد، جيجل، الجزائر 2007م.

12. فصول في تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، منشورات أنتير سينيي.2007م.

13. الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين(مجلدان) أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، (تحت الطبع، بيروت).

14.الرُّبُط بالمغرب الإسلامي ودورُها في عصري المرابطين والموحدين(رسالة ماجستير سبتمبر 1987م) (تحت الطبع، بيروت).

15. أمريكا التي رأيت (رحلتي إلى أمريكا).



الدكتور

محمد الأمين بلغيث






دار الخلدونية

05 شارع مسعودي محمد - القبة القديمة - الجزائر
ه/ف : 021.68.86.48 ه : 021.68.86.49
email : khaldou99_ed@yahoo.fr